

مطبعة صادق الراجحي وادبه.

بقلم

كامل يوسف الحاج

وهي رسالة قديمة في الدائرة العربية لبيان مشادة استاذ في العلوم

١٩٤٦

لا أستطيع، مهما كان النفع الإيجابي الواجب عليّ حله في هذه الرسالة، أن أتدرب من شعوري تكبرياً كما يقضي عليّ طابعي الخاص الذي عرفت به اتجاه نفسي. لذلك أقول أنني أعرض الرافعية عليّ فرداً متواضعاً منزعجاً رغم واجب التجرد من كل ميل شخصي وهو في القلب. ولنفترض أن الرافعية ممكنة في حقلي المادة والعلم، فلا بد للثالثة من أن تلعب دورها في الميدان الأدبي، لأن المظهر الذوق الفرعي هو المقياس الأهم للحكم على الانتاج. ومما تعاليل المرء لهو من جلده وتقصي عنه رجفات قلبه (أنا) دائماً وأبداً هي التي تمنع الحياة كلها بالوان الفؤاد وترش على الجماد بوارق من لوان النفس. ومن الناس من يمكنه ألا يكون ذاته مهتلاً مما كان يحته، حتى وإن وقف عليه عند حد التنبؤ. والانعزال من (أنا) يفقد الإنسان هذه الطاقة الذرية في باطنه، فيفقد هكذا مظل نفسه، بل يفقد نفسه وذلك يفقد ادراك (أنت) (وهو)، ويجعل الطبيعة أيضاً. فكوننا (أنت) (وهو) أكثر ما نكون (أنا) معناه بالواقع أننا لا نفهم (أنت) (وهو) حق الفهم. ولا اعتقد أن العلم يعمل على طمس معالم (أنا) في الإنسان، لأن الموضوعية الحق لا تحاول محو الذاتية. ولا أظن أن الفؤاد إلى (أنت) (وهو) يكون بخير الانطلاق على (أنا). ففي كل واقعة صحيحة بعض المثالية وفي كل مثالية صحيحة بعض الواقعية. لذلك إذا كتبت من الرافعي فأنتي أكتب عنه كل رأيته في نفسي وشعرت به، ولا أطلق حكماً عليه إلا (وأنا) في بعض هذا الحكم. وإذا أنكرت إيجاباً به ^{فخرجت} جبلتي التي فطرت عليها أنكرت نفسي. غير أنني لن ادع تحبي له يحميني عن هفواته. فقد نثر ^{وحرر} أحباباً، كان يرمي الألفاظ على قول ما لا تريد قوله. أما مهدي به فانه لا يبعد كثيراً. ويعود الفضل في ذلك إلى والدي الذي ^{الله} أوقنني على بعض الجبال في أسلوبه وتفكيره فكانت لفته وظلته السببين اللذين دفعا بي إلى اختياره موضوعاً لهذه الرسالة، وأدركاً أنهل منه غذاءً ^{لحياتي} وقلبي.

ما لا ريب فيه أن اللغة ذات قوة فعالة لإبراز المعاني. فبين اللفظة والفكرة من التساوي ما يفقد الفكرة بهاءها إذا لم تقذف إلى أذهان الآخرين بتعبير صحيح قوي. فالتمكن من مفرداتها هو السبيل الوحيد مع الإبداع البياني، لاستنهاه القارئ، وإيقاظ الأفكار ^{الهمجية} العتيقة فيه. وقد رايت في أدب كتابنا المحدثين انقضاء الطرف من هذا البعد، واستخفافاً بهامية اللغة والتعقّب من كوزها في بطن أمهات الكتب العربية القديمة. وأنا اعتقد أن التلذذ على أبدي الأسلاف في ميدان التعبير هو النجى الفريد لإدراك الفكر ناصعة طليعة، وتحديد الرمية محكمة في ^{لحياتي} طليعة المعنى المقصود. وقد رايت في أدب الرافعي مزاجاً الجملة المعينة. فهو طود راسخ يرسل الفاظه كأنها قطع منيعة لا تشوبها الركالة ولا يبرحها الضعف ولا يفسدها التفكك

فهو من اقدر من كشف من دواخل افكاره بلغة منحوتة ومن ارجل من هزقلنا عربيا في ادبنا الحديث . ويرجع ذلك الى ثقافته العربية الخالصة ، وقد اخذها عن ابيه واساتذته ، فلم يلقن لغة اجنبية الا التزج البسيط من الفرنسية لا غير . ولا إخال القارئ بهل ان ذلك بقوم اللسان في ^{اللسان} نفسه الام . وهكذا سلم انشاءه من الرككة فناسل بين الافكار والالفاظ بمذهب عبارته كخياط يقدر الثياب على قدر الاجسام . لقد جعل الرافعي القرآن في ^{باري} المادى اولى لحياته الادبية دون ان يصطدم ~~منه~~ ^{بغير} بتغير ثقافته العربية التقليدية ^{وكان} رست في عائلته من السلف الى الخلف ، فاطلع على اخبار الاقدمين ونهل من بلاغتهم في مكتبة ابيه ~~التي كانت~~ . وكان اساتذته امثال الجليظ وابن المقفع وابي الفتح الاصمعي ، لذلك نراه مشبها بجوهر مشرقلا يوشحهم حتى تشربتهم روحه وهذا صار قطعة منهم او انهم صاروا في صميم كهانه الادبي . فلا غرابة من ثم اذا كان ^{بأنه} اقرب الى القدم منه الى الحديث . وما ذلك بالعيب يؤخذ عليه الا القليل النادر . وانا اعتقد باق الرجوع الى بعض الكتب القديمة واستخلاص روح الجملة العربية منها لازمان للاديب الحق . ولا اعني بذلك وقف اللغة عن التطور حسب مطالب الزمان والمكان ، فانا ادين ببعض مبادئ النشوء والارتقاء ، غير ان التطور لا الحقيقي لا يكون طلاقا مبرما بين ما فات وما هو آت .

نفسه =

اما الدافع الثاني الذي حملني على اختيار الرافعي فهو ميله القوي للتأمل في غوامض هذا القلب الانساني وازاحة السلف من مصون طويته . وكمن مرة دخلت الى ذاتي من ذاته وانا اطالع ادبه فكانت هتافات وردت لو ~~كانت~~ استطالت فاصبحت ابادا وازالا لعظم ما كان ينتابني من قشعريرة صوفية تنفذ فيها نفسي من ارضية الحواس الى سماوية الروح بالتأمل والمكاشفة . فهو يسدد نظراته ^{كبيرة} كالكاشفة الحكم في الحوار الانسان ليظهره صافيا في واقعة ~~عالم~~ خالفا من غبار يستره ، فيبافت قلبك في حفر دارك كيف يهمس همسات بكر ، وكيف يبيض ثيابات صريحة ، وكيف يخفي في قراره خفقات الحب والالام . وهكذا يخذي الفكرة كما يخذي الحاسة ^{للشعير} للتعبير على ، حتى اذا قرأته وكنت على شيء من التدقيق للحقيقة والجمال رابته يضحك امل مشاكل الحياة يجهد في العاطفة يحاول بها ان يسبك في مجاهل الغيب الكائن خلف الطبيعة ، ^{والله} ^{سلك} ^{سلك} بالانسان الحام في كل انسان ، وفي الطبيعة العامة في كل انسان . في الراقعية ابعاد فكرة ^{سلك} ^{سلك} ^{سلك} التقني ، وتدرينا على حب التشوف الى الجبهل وراء المعلم . فهو من اولئك الذين اوتوا النظر القوي بقبسات جمالية خالدة ، والسباحة في بحار النفس لاصطياد احداث وجواهرها .

كذلك هما السببان اللذان دفعا بي الى اختيار الرافعي وسافض الطرف اذا امكنتي ذلك مما جاء في كفيه من جدل متين الملمحة بونه وبين بعض ادباء ^{لانه} ^{من} ^{حيز} ^{الادبي} ^{الصافي} الذي يستحق البقاء في روضة الخلود . فهو ^{حاصل} ^{لعتقادي} ^{من} ^{سبطه} ^{النسان} . وما فرضي في هذه الرسالة الا استخلاص ما صفا من ادب الرافعي كما اراه (انا) لا كما يراه غيري من نظروا اليه من خلال شعورهم .

كل من

در علم دین و فقه اسلامی

تاريخ آداب العرب

تاريخ الآداب العربية وضع

هو الكتاب الثاني في عالم التاريخ الذي وضع للآداب والآداب العربية بعد مؤلف جرجي زيدان.

"وقد سبقه هذا الأخير بشهر أو شهرين سبقا مطبعيا . وكانت مقالات الرافعي في الجليل (طبعة) وكتابه "تاريخ آداب العرب" من بعد هما السبب في تدريس العربية وتاريخها في الجامعة المصرية. وهما السبب كذلك وضع ما وضع منه العجب في هذا العلم. انقطع الرافعي الى تأليف هذا الكتاب منتصف من سنة ١١٠٩ الى آخر سنة ١١١٠، وهو الكتاب الذي قال عنه الأمير شكيب أرسلان

«لو كان هذا الكتاب خطأ محجوبا في بيت حرام أخرجته للناس منه لا استحق ان يحج اليه؛

ولو علم على غير كتاب الله في نواحي الاسرار لكان جديرا بان يعكف عليه»

اختلف الرافعي في نهجه التاريخي للآداب العربية عما سبقه اوله في هذا الميكان. فقد سلك المؤرخون مسلكا تاريخيا دارسين تطورات الآداب العربية وفقا للتطور التاريخي والتتابع الزمني. فاولهم فاذا بهم تقسموا الى عصور متلاحقة كالعصر الجاهلي وعصر صدر الاسلام والعصر الاموي والعصر العباسي ... الخ وبذلك ساروا سيرا علميا مجردا . غير ان الرافعي ابي اتباع هذه الخطة فراح يدرس آيينا على ضوء القرآن لا غير متعسبا اياه في تلك نقطة

الانطلاق والإلتكاز التي اندفعت منها جميع الصفوف الادبية عند العرب. ومن هنا قوله «بان الرجال في تاريخ الآداب الأوروبية هم قطعة التي يتألف منها لانهم متصرفون في اللغة كانوا انما توضع لهم اوضاعا جديدة في نكل رجل منهم في طريقته ومذهبه فن علم او هو على الحقيقة قطعة متميزة في تركيب التاريخ العقلي . ولكن الرجال عندنا في قياسهم باولئك ينزلون

منزلة تشبيهات من المعاني الاصلية الا ما نثر ولا حكم للتأدر . وذلك لان في لغتنا معنى

بصيا هو سرها وحقيقتها فلا تجد من رجل روى او صنف او امل في فن من فنون الآداب

اول عهدهم بذلك الا خدعة للقرآن الكريم ثم استقلت الفنون بعد ذلك وبقي اثر

هذا المعنى في فواتح الكتب والقرآن نفسه حادثة ابية من المعجزات الحقيقة التي

لا شبهة فيها وان لم يفهم سر ذلك (من لا يفهمونه). افيصلح بعد هذا ان يكون تاريخ الآداب

العربي مبنيا على غير حوادثه التي كونته وتعلق باكرها رجاله دون ان تتعلق بهم كما

هو الشأن في سواء ..

«على ان التقشوقين فيما ارى لم يختاروا ذلك الوضع الا لما كان المعجزة منهم اذ لا سليقة لهم

في العربية وادابها. وان كان منهم روس في بعض فنون التاريخ العربي ثم لانهم يتعجلون الفاعدة

كيف اصابوها فايما ما يضعوا من تلك فلم به فضل . ثم هم يكتبون لانفسهم ولاقوامهم فلا يبالون بما تفتق عليهم هذه الطريقة التي يستعملون عليها . ولكن ما بال ادياننا اصلحهم الله قد اضلوا الحجة وجهلوا بموضع الشبهة فتابعوا على غير نظر وكانوا جميعا في ذلك كأن واخوانها في فيما يعمل وما يكف . . . وما بالهم وهم بقية العرب واهل اللسان وحفظه الكتاب لا ينفون ان يعدوا من "انبياء اللغة" تاريخ علم الفلك مثلا وان كانت روائع الالفاظ تشبه بالنجوم، ولا بان يقرئوا علم الصرف بعلم الكيمياء وان كان لكل منها "وزن" معلوم . ان صنيع اولئك (المستشرقين) وهؤلاء (المستغربين) لا يعتبر في حقيقة التأليف الا توسعا من ضيق وتوفيرا من قلة واغراقا في الحشد والاجتلاب. والفرق بعيد بين علم يورد منه المؤلف اشباعا للكتاب وبين كتاب يفرغ اشباعا للنفوس. ولهذا بقية بتاريخ اداب العرب محتاجا الى طريقة اخرى لا يختصر فيها الزمن بسرعة النقل ولا يرفه على الفكر بهذا "الاضطراب الرياضي" في وثوبه بين الكتب ولا يهبط فيها قبح التأليف بحسن التقسيم ولا يقوى ضعف المعنى بما يكون من العناية ولا تفتق الفصول ^{الطويلة} ^{الطويلة} سنا بما تلبس من الاوراق الكبيرة . . . ولم تسقط دولة المعقول في هذه الامة الا منذ ابتداء العلماء بمعتبرون العلم ^{العلم} ^{العلم} كما هو فتهافتوا على تلك باختصار الكتب وشرحها وتفنيقها بالحواشي والتعليق (الهوامش) وتلخيص المتن ونحو ذلك مما يورث الضمحل، ويفقد العقل معنى الاستقلال ويجعل القرائح كالظل المتنقل كل آونة يقرب الى التوابع . . . وقد بلغ من اثر ذلك ان صار العلماء يجهلون حتى ^{اسماء} العلم التي لم ^{تصل} ^{تصل} على ايديهم وخاصة في مصر فهذا شيخ الاسلام محمد بن عبد البر السبكي المتوفي بدمشق سنة ٧٢٧ هـ يقول انه يعرف عشرين علما لم يساله عنها بالقاهرة احد . ونقلوا عن القاضي عز الدين بن جماعة المتوفي سنة ٨١٩ هـ وهو الذي كان يفاخر به المصريون علماء العجم في كل فن ويشيرون اليه في انواع المعقول - انه كان يقول اعرف ثلاثين علما لا يعرف اهل عصرى اسماءها . وكل ذلك من وناهم واجتماع العلماء من هذه الشروع على ما يشبه تشرح الرم حتى ليس الا قال وقيل ^{قلت} ^{قلت} وفيها قولان . ولعمري ما جبل (قاف) الا جزء من هذه السلسلة . . .

((واذا كان عمود التاريخ سبابة الحوادث كما اسلفنا فلا تُرغم هذه الحوادث على ان تقع في غير وقتها وتنفصل عن طبيعتها وتتصل بغير طبقتها في التاريخ ولذلك راينا ^{الطريق} ^{الطريق} ان نذهب في تأليفنا مذهب الضم لا التفريق وان نجعل الكتاب على الابحاث التي هي ^{مختصة} ^{مختصة}))

الحوادث لا على العصور فنخصص الآداب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب كما يفعلون وبذلك يأخذ كل بحث من مبدئه الى منتهاه متقلبا على كل عصوره سواء اتسقت ام افرقت فلا تسقط مادة من موضعها ولا تقتصر على غير حقيقتها ولا تلجأ الى غير مكانها ثم لا يكون بعد ذلك في التاريخ الا التاريخ نفسه لا ما يزين به من العبارة المونقة ولا ما توصل به الحقائق القليلة من تصورات الخيال وشعر التأليف الى امثال ذلك من مواضع الاستكراء وضيق المضطرب وامثلة فيما بين ايدينا ماثلة لا تحتاج الى انتزاع، وهي على نفسها ~~شاهدة~~ ^{شاهدة} فلم ^{يتو} يبق في امرها نزاع. واذا تدبرت طريقتهما هذه وقابلت اثارها بما شئت من اثار الطريقة الآخرة ولحكت تلك بعقل راجع وانعمت فيه بنظر غير مدخول رايت اى هذه الكتب لحسن قياما على تاريخ الالب واولي بالحاجة منه وارد بالفائدة على طالبيه وتبينت ~~ايها~~ ^{ايها} اضعف منزلة من الرأي والتبشير في طريقته بما يكشف لك ~~خلو~~ ^{خلو} باطنه من ورم ظاهره، وما تجده من سرفة الاتصال في هذا "الفراغ المعنوي" بين اوله واخره"

هو الجزء الثاني لتاريخ آداب اللغة العربية وقد خصصه الرافعي للبحث في اعجاز القرآن. ولا عجب ان يكون قد اُفوت للقرآن كتابا برمته يبحث فيه عن اعجازه ما دام يعتقد الوضع الاساسي لجميع ما تفرع وتشعب في الادب ~~في~~ العربي . وكانني به مكث جنة ثانية يكتب هذا الكتاب ليدافع به عن عقيدته اللطيفة وينفي ما جاء به بعض الكنية من اننا في عصر عقلي يجب علينا ^{نفسه} بظنك ان نخضع كل شيء الى المحك المنطقي. والرافعي المسلم المستنيت في - سبيل عقيدته الاسلامية يابى مثل هذه التعاليم قال // على انك ترى اصحابنا العلماء ... لا يتحاملون على شيء ما يتحاملون على القرآن الكريم فهم يخصونه بمكاره العلم كلها ، ويجفون عنه اشد الجفاء ، وانهم واياء في غرورهم ^{واصلهم} ^{وارعاهم} كالطيارات ^{فهم} ان تصعد في الجو فضت حاشدة في حملة حربية الى فلك الشمس .

"الا ان ^{هذه} الشمس سنن الكون وقوانين الاقمار ونظام الابدية، بما تسمى عنه طيارات ^{الارض} ^{الارض} وذبابات الارض حتى ما بين هذه وهذه منزلة او فرق وان جعل العلم بينهما فروقا وفروقا ومنازل ومنازل ... - دع جهلهم باللغة واسرار البيان، فهو السبب الحق الذي خل بهم وجعلهم يرون القرآن ~~كلاما~~ من الكلام يجرون عليه الحكم الذي يجري على غيره ، كما يظن الجاهل الذي ليس في نظره معان عقلية - دع هذا ^{او} خذ في السبب العلمي الذي ينقونه من القرآن فهم يرونه صورة من الثبات والاستقرار، ويعلمون ان العقيدة قد محته من قانون التحول والتغير وجعلته في ذلك قانونا وحده لا يعلمون (اصلهم الله) ان استقرار القرآن هو شريعة واخبار وآداب، هو بعض ائلة اعجازه ، بل اقوالها، بل دليلها الزمني المنسحب على الزمن اذ كانوا قوما يجهلون ولا ^{حق} يحققون)) على ان الكتابة آية من آيات النظم ^{النظم} الانطوي في عصرنا. والحق يقال بان الرافعي معجز في اعجازه ولذلك يلق عن الافهام في الكثير من الاحيان فيغرب وكأنه يخاطب من وراء الستار الغيبي او يطل عليك بنهنيات بعينة المدى. واجمل ما في الكتاب بلاغته التي ما بعدها بلاغة في تحليل الحروف والكلمات والجمال. وهي جولات فلسفية حول ^{صاحبة} ^{هي} في اللغة ييز فيها اعظم كنية الغرب. وقد برهن الرافعي انه ومن ائمة هذه اللغة حقا فاسمه مثلا كيف يحلل بلفة معرفة نفسية الكاتب من انشائه قال // فقد ثبت لنا من دراساليب البلاغة، وترداد النظر في اسباب اختلافها، وتصنع هجوه هذا الاختلاف، وتعرف العلل التي اثرت في مباينة بعضها لبعض ، من طبيعة البليغ وطبيعة عصره - ان تركيب الكلام يتبع تركيب المزاج الانساني؛ وان جوهر الاختلاف بين الاساليب الكتابية، في الطريقة التي هي موضع التباين، ولا في الصنعة كالمحركات اللفظية ونحوها - انما هو صورة الفرق الطبيعي الذي اختلفت الامزجة النفسية بعضها عن بعض، على حسب ما يكون فيها اصلا او تعديلا - كالمصبي البحت، والمصبي الدموي، وغير ذلك ما هو مقرر في الفروع الطبية؛ حتى كان الاسلوب في انشاء كل بليغ متعكنا ليس الا مزاجا طبيا للكلام، وما الكلام الا صورة فكرية من

من صاحبها. وقد امعنا في هذا الاستنتاج، وقلبنا عليه ^{كل ما} نقرأه من أساليب العربية
 (وهي معدودة) ومرنا على ذلك زمنا؛ حتى صار لنا ان نستوضح اكثر اوصاف الكاتب من اسلوب
 كتابته، يرد ذلك الى الاوصاف النفسية التي تكون من تاثير الازجية، والتي قلما تتخلف في الناس،
 وبما اشبه بعضهم بعضا، وبما كان التاريخ يعيد نفسه) وقال ايضا (بيدان طريقة البلاغة انما يراد
 بها تحقيق المعنى، واستبصار غايته، والتمثيل الشبه منه، واخذ الوجوه والمذاهب على النفس
 من اجزاء التي يتألف منها، ^{بعض} ان استوفى على وجهيتها في الكلام ^{استيفاء} يقابل ما يمكن
 ان تشعر به النفس من هذه الاجزاء؛ حتى لا تصدف عنه، ولا تجد لها مذهباً ولا وجهاً غير
 القصد اليه؛ فيكون من تلك الالزام البياني الذي توحيه طبيعة المعنى البليغ وكان ^{مما} مقصداً ...

(١١) اعجاز القرآن وجه ٢١٠

(١٢) اعجاز القرآن وجه ٢٨٢

هو الكتاب الثالث في ادب النثر المصدرة بعد مؤلفيه (تاريخ ادب العرب) (واعجاز القرآن) والكتاب احاديث على لسان القمر كتبها الرافعي بعد رحلة الى لبنان سنة ١٩١٢ حيث تعرف على شاعرة كان بينه وبينها نجوى وهيام جرت في قلبه منهما ينابيع من العواطف وسيل من الخيال كانت نمرتها (حديث القمر) وقد طبع الرافعي في اسلوبه على غرار الجملة القرآنية اراد بها ان يخلص هذه اللغة من عتارها وارجاعها الى ما كانت عليه من قوة وجزالة وبيان. وما دفعه الى ذلك الا كون الشعر يضيق به في الكثير من الاوقات لعظم ما تفيض به نفسه من دفق عاطفي واندفاع حساس. لهذا نزع الى النثر الغني، فكانت تلك الاحاديث القمرية. وهو كتاب نحا فيه جهة رمزية جديدة ففي الادب الحديث ترفعه الى مصاف اكبر الرمزيين وهياطرة الادب في الغرب ...

بشرقي الرافعي من خلال هذه الاحاديث ~~طرح~~ باراء تأملية في الحياة . فينتهج، كما ينتهج في كل كتبه، ~~يهيئ~~ نهجا وجدانيا ~~ويصنف~~ ينفذ به الى اغوار النفس البشرية. فتمت مشكلة الزمان، والعقل، والايمان، والفقر، والسعادة، والقضاء، والقدر الى ما هنالك من عقد فكرية هي محور ما يدور عليه الكتاب. والرافعي لا يطرق هذه المعمبات الا باسلوب رمزي لا باسلوب جدلي تحليلي. وهو روحاني النبرة دائما في كل لغثاته الى الحياة، فنسمعه يقول مثلا ^١ السلطان الحقيقي على الطبيعة سلطان الروح لانها من الله وهذه الطبيعة اداة في يد الله. فليجعل الانسان شفتيه مخزنا لغويا ملوفاً بالفاظ العلم فان الطبيعة لا تبالي بمدلول الحروف مهما حملها ~~عنه~~ على ذلك باصطلاح. ولكن ليجعل في قلبه علم الخير واحالة الشر الى الخير فان الطبيعة لا يسعها الا ان تخضع باحساسها خضوع الاجلال لاستاذ تلاميذتها وترفع الى الله على بدء تعارفي المساكين كانه الامين على آمال القلوب وتجعل الطبيب هذه البعد نفسها كانها شكرتها لله تعالى اذا انجبت رجلا من رجالها في الارض. ^٢ واذا تكلم عن الحقيقة قال ^٣ ابنها الحقيقة لا يظفر بك الا سعداء الفطرة وما الطبيعة كلها الا ايمان بك ودليل عليك فلو خلص الانسان من وهمه لخلص من همه ولغربي كيف يقدر الحزن بسببه الحقيقي لا بالأمال المتوهمة التي زالت بزوقه فان تقدير المصيبة بالامل الذي كان يرجى لو لم تقع امر لا يحتمل احداً بل لا يزال يتسع من ظن الى ظن حتى يهيج السخط في نفس الحزين والسخط مع المصيبة مصيبة ثانية. ^٤ واذا تكلم عن جمال الطبيعة قال ^٥ فمن اين يجتلي جمال الطبيعة وانى له ذلك وقد مسخها هذا المسخ كله ولم باخذك من يد الله كما وضعها ولكن تناولها من فكره كما صنعها فجاء بها من ناحية همومه فكان هم جديد او ذكرى هم قديم ... اذا اردت ابها الانسان ان ترى جمال شيء من الطبيعة فاجعل عينك اقرب اليه من فكرك بل اهزغ فكرك هذا الا الخفيف منه كما تنظر بياضك اذا طلبت السباحة في ذالهم، والا الطاهر منه كما تخلع نعليك اذا اردت الصلات المسجد والا الصافي منه كما تطرح شغل قلبك اذا وقفت بين يدي الله. فان انت سبحت بشياك فانما تمثل الغرق وان دخلت المسجد ~~من~~ نعليك

النجستين فانما تمثل الالحاد وان واجهت ربك وانت مشغول بنفسك عنه فانما / تل نفاق الشيطان وان نظرت الى الطبيعة من فكرك المادي فانما تمثل العمى الطبقي^(١) وهو يخاطب القمر دائما بمثل هذا القول "ولعمري ايها القمر اني لاشكو اليك بنى وحزني وانا جيك باحلام النفس الانسانية وانيك لتجيبني الجواب الكلمات البليغ فتطرح اشعثك في قلبي آخذ من بعضها قولا وارجع اليك بعضها قولا كالعاشق يرى في الإحاط حبيبته بالنظرة الواحدة ما في نفسه وما في نفسها جميعا^(٢) . . . وكما نأجلك ايها القمر من عاشق قلبي لمفانك ما انفصلت عن الارض لا ليجمع الله منك افقا لآمال الانسانية الجميلة بل انالاحب^(٣) عاشقا من لا يتأجلك ومن لا ياتي بدموه واحزانه وهواجسه واماله فينطرح في هذه اللجة التي ترسلها من شعاعك وينخس فيها ساعة ثم يخرج وكأنه جسم من نور يخفق من جنبه قلب كالنجم . . . ويترك في نورك بقايا ظلمات نفسه الحزينة تراها السماء فتري بها كيف يكون ظل هذا القلب الانساني العظيم^(٤) ثم تجمع انت هذه البقايا وتدرجها في قطعة من شفق الفجر تشابه الدم الذي كانت تختذى به من الحياة وتدع الزهرة الحسناء ترسل عليها نظرة من نظراتها الفتانة لتعرف - اي ثمن من الانفس والقلوب تشتري به في الارض - ابتسامة كابتسامتها في السماء^(٥) . . .»

قال الاستاذ سعيد العريان عن هذا الكتاب «وهو اسلوب رمي في الحب على ضرب من النثر الشعري او الشعر النثري يصف من عواطف الشباب وخواطر العاشق وما اليهما في اسلوب فني مصنوع لا احسبه مما يطرب الفاضلين من قراء العربية في هذه الايام الا ان يقرأه على انه زاد من اللغة وزخر من التعبير الجميل ومادة لتوليد المعاني وتشقيق الكلام في لفظ جزل واسلوب بليغ. ومن هذا الكتاب كانت اول التهمة للرافعي بالخموض والابهام واستغلاق المعنى عند فريق من المتأدبين ومنه كان اول زادي وزاد فريق كبير من القراء الذين نشئوا على غرار في الادب لا يعرفون ناشئة المتأدبين اليوم^(٦) . . .»

(١) حديث القمر رقم ١٠٢

(٢) حديث القمر رقم ٤٢

(٣) حديث القمر رقم ١٤٧

(٤) سعيد العريان في حياة الرافعي رقم ٥٨ .

كتاب المساكين

ركن من اهم اركان ^{العمارة} الراقية يطل به علينا من علو محرابه الخيالي وشاهق
مأذنته الرجية ببصرة نفاذة الى ^{الآفاق} ابعاد النفس البشرية كأن ^{هنا} الباطنية مسير
خافق يقيس به اغوار قلب الانسان المتلاطم امواجه، ويهبط به الى اعماق طوية القلب
ليدرك المدى الذي تشطح النفس اليه في سحيق خلجاتها ووثباتها. كتاب انما ضم بين
نفتيه اراء وجدانية في الدين والعلم والايمان والقدر والفقر والحظ والحب والجمال والحرب
والشك والضمير والنظام الاجتماعي. ومن هنا كونه قدّم اصول النفس البشرية ^{في} الحياة
خطوطه ^{الراقية} والراعي يرسل الى اراء هذه وعظا الى الناس وهو لا يوجهها الى
الاغنيا بمقدار ما يوجهها الى الفقراء في الحياة والمساكين بالروح. ولا يخاطب المايين بها
والمنطقيين ولكنها للمؤمنين بالقلب والمتركين بالروح. هي خفقات خواطر ونوازع نفس لا
يضعها الاخوان المساكين، لذلك قال في صدر الكتاب (هذا كتاب المساكين فمن لم يكن
مسكينا لا يقرأه لانه لا يفهمه ومن كان مسكينا فحسبي به قارئا والسلام) وقد استهل
كتابه بكلمة لحمد يقول فيها (الله الله احبني مسكينا واحشني في زمرة المساكين.

ان رحمة الله لا تفارقهم طرفة عين) ثم علق على هذا الدعاء بقوله (ذلك لانهم مادة الاخلاق
والعواطف فهم في الانسانية كالجيش يقذف به في المهلك لانه وحده مادة النصر وعلى هذا
فمن رحمة الله بالناس انهم في الناس في ^{الكتاب} ...)

في الكتاب مواضيع شتى يرسم فيها الراعي منورة آلام الانسانية العائرة واجامعها الاجتماعية.
وهو بذلك مفكك الاجزاء لا تترايط في ^{ملقاة} ولا تقوم عمارته بنيانا متماسكا. غير ان هذا
التبعثر ظاهري صرف حسب ما اراه، لان الكتاب يركّز في ضمنه على وحدة باطنية ^{ينطلق} الكاتب

منها واليهما يرجع في كل جولاته المتنوعة. فمقارنة الموجوع وحرقة الولهان ودمنة الجائع
وصرخة اللهفان وشطحة الصوفي وشك العالم وينتفع والى الانسان كائنات يرجع في رحلاته
الوجدانية. تلك سياحات ينطلق فيها من صميم القلب البشري ليعود بها الى نقطة واحدة

هي المسكة الروحية اخلا ما في الانسان وايد. قال (وضعت هذا الكتاب من احدى عشرة سنة ولو
استوى له احد عشر قرنا ثم كتبت له مقدمة لكان هو هو كما اصفه ^{للليل} اليوم، كتاب ليس له

قبل وليس له بعد، فهو دائر مع النهار والليل على معنى آخره في الانسانية اوله. معنى

انا قلت فيه انه يجي مع كل مولود فقد قلت انه لا يموت مع احد من الموتى... هو رمز

في كل دهر لثبات الجوهر الانساني تحلى تحول الازمنة في الاشكالها المختلفة؛ ومن ثم تعبر عن الانسانية معاني هذا الكتاب فهو من روحها صورة وحلية وجاذبية؛ ومن عجب الحكمة انه ما من نبي او حكيم او شاعر يترجم الى لسان الحياة ما هو اسمى من الحياة الا ^{استند} تلك من مساكن الحياة خاصها هم ابنا السحابة ^{المستورة} ~~التي~~ الحيلة لعطر المواطف على جذب الروح الانسانية في الارض والعلهم لذلك يتراكمون في الحياة من سواد كالغمام، ويتشققون من نار كالبروق، ويجفجفون برعود يثنون فيها، ويتجسسون بمطر يبكون به... وضع الرافي جميع هذه المواظف الاصلحية في الحياة على لسان شيخ اتخذه بطلا له اسماء الشيخ علي، وهو رجل يعيش بظاهره في هذه الحياة مسكينا ويعيش بروحه فيما ^{هنا} وراء الطبيعة مشربا، وقد طبع الرافي في نهجه ^{هنا} على غرار اعظم المفكرين في العالم الذين ياثون ارسال افكارهم الوجدانية الا على الالسنه الابطال يتخيلونهم او يكونون قد وجدوا في دائرة الواقع فيتخذونهم ابواقا ينفخون بها لوامع ارواحهم ويوارق افكارهم. اما فعل افلاطون مثل هذا باتخاذ سقراط بطلا له في محاوراته...

((اول امر الرافي في تاليقه كتاب المساكن انه كان في زياره اصهاره في (مئيه جناح) فلقني هناك الشيخ علي، ^{هنا} رجل يعيش وحده ليمله جيب يمك درهم، ولا جسد يمك ثوبا ولا دار ^{تونه}، ولا حقل يغل عليه؛ يجوع فيهبط على اول نار تلقاه يتناول ما يمك رمله، ويدرك النمل فيتوسد ذراعه حيث ادركه النمل من النار او الطريق. رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس وآمال الحياة. ولقيه الرافي واستمع الى خبره، فعرف من فلسفته فلسفه الحياة، ووجد عنده الحل لكل ما في نفسه من مشكلات، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ علي ~~الفيلسوف الصافي~~ ^(٤) في الرافي الابيب، واجتمعت له مائة الكتاب في

مجلس واحد لم ينطق فيه احد بكلمة ^(٥) غير ان الشيخ علي لم يكن الدافع الا واحد لوضع ~~هنا~~ هذا السفر النفيس في معنى الحياة. فهو زينة اعوام طوال تخضت بها روحه مما شاهده من احوال سنوات الحرب. وقد فطر الرافي على رقة القلم، ولين في الاحساس فتتفعل نفسه ~~هنا~~ حالا بما ينعكس على ~~هنا~~ من مشاهد الالم والبؤس. فهناك قحط وجوع وهناك غلا وبس وهناك القنابل والقذائف وهناك التيتم والتفجع وهناك لوحات تعزق الاحماء وترد البصر حسيرا كيفما يم الانسان وجهه. كل تلك لقم الرافي بهسم المساكن الى ان حان الوقت واقترب الميعاد والثقى بالشيخ علي، فوضعت ~~هنا~~ ^{هنا} روحه ما حبلت به على لسان هذا الفقير بمثل هذه الطريقة...

هذا كتاب المساكن الذي قال فيه احمد زكي باشا (لقد جعلت لنا شكبير كما للانكليز شكبير ^(٦) وهيجو كما للفرنسيين هيجر وغوته كما للالمان غوته)

(١) كتاب المرآة بين وجهي

(٢) سعيد الريان في حياة الرافي رحمه ٦٢

(٣) الرسالة عدد ٢٠٤، في ٢٤ مايو - ١٩٢٧ - في ٢٠ مايو ١٩٢٤

رسائل الاحزان

== : = : = : = : = : = : =

اربع عشر رسالة كتبها الراجعي في كانون الثاني سنة ١٩٢٤ وخرج منها ١٧ شهر شباط ١٩٢٤ على حد قول الاستاذ سعيد العريان. وقد رسم الراجعي بانها رسائل صديق بعثها

في اول المقدمه

اليه وهو يتحدث عنه بقوله (كان لي صديق خلطته بنفسي زمنا طويلا وكنت اعرفه معرفة
الرائي كانه شيء في عقلي ومعرفة القلب كانه شيء في دمي . ثم وقع فيما شاء الله من امور
دنياه حتى تسبني وطار على وجهه حتى غاب عن بصري، والتفت عليه مذاهبه فما بقع السبي
من ناحيته خبر؛ وامتد ببني وبينه حول كامل خلا من شخصه وامثله من الفكر فيه، كانه
العامل الاول من تاريخ حفرة بين القبور العزيرة التي لا تنسي وطلعت الشمس يوما في
غهم بنايخ من سنة ١٩٢٤ فاحسست قلبي من الذعر كالطائر بنفرضندي جناحيه في اشعثها
ولم تك تترفع وتتلأأ حتى واني البريد يحمل لائي خطه ...) وقد سلك الراجعي في
هذه الرسائل نهجا مجردا عن ضمير المتكلم ملتجيا دائما الى ضمير الغائب (هو) مشيرا الى
صديقه بمثل قوله (هدمت الاقدار هذا الصديق حتى انحط كل ما فيه من العزم والقوة فجاءت
(هي) تبليه وتشد منه وترم بعض نواحيه المتداعية وتقبه بسحرها بناءً جديدا وتحفت
به عنايتها زمنا حتى صلح على ذلك شيئا فايسترت روحه من فقرها الى الجمال والحب .
ويقول صديقي " انه ليس على الارض من يشعر كيف ولدته امه ولكي رابت بنفسي كيف
ولدت تلك الحبيبة نفسي؛ مرت ببديها على اركانها المنهدمة ولعانتها الاقدار على اقامتي
ومثاني، غير ان هذه الاقدار لم تدعها تهنييني الا لتعود هي نفسها بعد ذلك فتهدمني
مرة اخرى) اما هذه الرسائل فهي مفعمة بالاحزان كما يدل عليها العنوان وقد قال فيها
الراجعي (هي) رسائل الاحزان لا لانها من الحزن جاءت ولكن لانها الى الحزن انتهت
ثم لانها من لسان كان سلما يترجم عن قلب كان حيا ثم لان التاريخ الغزلي كان يبيع كالحياء
وكان كالحياء ماضيا الى قبر ليس ببني وبين الهوى شأن ولا عداوة ولكنها تركت في
ثلاث : قلب اخلص لها واخرته عليها وثقايا الام كانها اشلاء من فريسة تشبه الى تاريخ من

الموت والالام والتعزيق وتركت مع هذين اسمها الذي لحفظها فيه بجملتها، وقد
وقد يحسم الداء ولكن اسمه يبتلى داء ما بنى (١١٠) ويظهر ان الراقص كان قد شفى من داء

الحب يوم كتب رسائل واستعادهم وفيه الكامل واستكتكت نفسه فما ارادها غير ذكره لمرحلة صاحبه
عبرته فيها روحه. وذلك ظاهر من قوله (ان كل ما سطرت في هذه الرسائل قد انعقد همه
وسواده فكان عجاجة نائرة من حرب الهوى ليس تحتها في حومة القلب الا الم كضربة سيف او
طعنه رح او كية رصاصه ملتصبة حمراء. احتلت نفسي عفا كانت فيه من الغيظ والمجدة ونافعتها
وغالبها حتى وقفت بها على صراط النسيان ولكي في ذلك انما كنت كناقض الشوك بالشوك يعالج
وخزة واحدة بوخزات كثيرة ويكشف عن حمة العقرب النباتية بحمة مثلها وما زلت انكت بسن هذا
القلم في صميم هذا القلب حتى فاض في صفحات هذا الكتاب (١١٠) في هذا الكتاب جولات بعيدة
ببيانها الرفيع وجوانب وجدانية عميقة الخور يرينا فيها الراقصي الحب من شرفات عالية. فهي والحق
يقال نظرات فلسفية في عاطفة قلب تجاه قلب يحبه. وقد كشف لنا نهج فيها عن الكثير من اسراره
النفسانية، فهي من هذا القبيل خير دليل نستند اليه لمعرفة اهم الوان شخصيته الباطنية.
بها يرفع لنا الستار تلو الستار بوحا عما تتجشع به نفسه من رحمة وحنان وعطف وحب وبغض
وحقد ايضا. فهي اعترافات صادقة على لسان صديق هو الراقصي عينه قال عن هذا
الصاحب الخيالي (ومما لا اكاد افهمه انه يكتب كتابة محب احبائه الحب وبمغض قتل البغض

فاني اعلم ان كل شيء حبيب ممن نحبه حتى البغض اذا كان يدل على حبه ولو لالة خفية.

بيد ان صاحبي يجفو جفا شديدا فلعلها انفة غلبت بها النفس على القلب فعولت الحب الى
جفا والجفا الى غيظ والغيظ الى مقت وانما المقت اول البغض واخره (ساكنب اشياء واضمر على
اخرى لا ابرح بها، وما نام لك امرى باطن لا يشركه فيه الا الغيب وحده ففي كل انسان تعرفه
انسان لا تعرفه ... فانا وحدي اعرف سبب الزلزلة التي اصفها والناس بعد كاولئك الخياليين
القنماء الذين كانوا يقولون متى اهتزت اركان المحراب ان اله المصارعة ينبض قلبه الان ...

انا وحدي اعرف ما اندنج عليه وما يكمنه قلبي المتالم الذي اصبح يضطرب اضطراب الورقة اليابسة

في شجرتها نافرة تتلعلل ان عفت عنها نعمة لا تغفر النسمات كلها. فسأتيك في رسائل بالكلام

الصحيح والكلام المريض ويتشعب عليك من خيري امور وامور، فلا تحاول ان تمتك سر هذا القلب (١١٠)

البيت الهجة هذه هي لهجة من يعترف بما تكفه نفسه في معون طويته من حب وهيام

(١١) (١٢) (١٣) (١٤) (١٥)

ونمت في رسائل الاحزان كما في كتب الرافعي كلها خواطر فلسفية في الحياة والقدر والعقل .
 والقارى يقع فيها ^{ضبط} على تحديد للشعر جميل ^{للمعاني} للظنية يقول فيه ما يلي - (الشعر وراء النفس
 والنفس وراء الطبيعة والطبيعة وراء ^{هنا} ورائها الخب. فلو جمعت ما قيل في الشعر لرايته يصلح في اكثر
 معانيه ان يقال في النفس ثم لرايته مفهوما من جهتنا وغير مفهوم من جهة. وما الشعر الا اول
 المعاني المبعدة والدرجة الاولى من سلم السماء الناهية الى عرض الله . وهو كذلك اول ما في
 الانسان من الانسانية ^(١) . يقول الاستاذ سعيد العمريان / لقد كان حب الرافعي الاخير حادثة
 في ايامه فعاد حينئذ في فكره . ورسائل الاحزان هي اول ما انشأه من وحي هذا الحب على ان
 قارنه ^{بقرئ} بما يعرف اهو رسالة عشق الحى عليه الحب ، ام زفرة مبغض يتلذذ بالمبغض قلبه . والحق
 ان الرافعي انشأه وهو من الحب في غمرة بلغت به من الخيظ والحنق ان يتخيل انه قادر على
 ان يبغض من كان يحب بغضا يرد عليه كبرياؤه وينتقم له . فما فعل الا ان اعلن حبه في اسلوب
 صارخ عنيف كما تحنو الام على ولديها ^{ولديها} في عنفوان الحب فتغضه ^{فتغضه} وانها لا تريد ان تقبله ، او كما
 تقسو ذراع الحبيب على الحبيب تغضه في عنف وما بها الا الترفق والحنان ^(٢) .

(١) الكس لحواله د.م ٩٥

(٢) سعيد العمريان في حياة الرافعي د.م ١٠٦

هي طائفة من الراء في الحب والجمال نشرها الرافعي واثم كتابتها سنة ١١٣١ كما يقول الاستاذ سعيد المريان. وهي رسائل تطارحها الشاعر المصنف فيلسوف روحاني وشاعرة فيلسوفة روحانية كلاهما يحب صاحبه كما يقول الفيلسوف ابن سينا باعتبار عقلي ... وقد جرت الرسائل بينهما على اغراضها في احوال مختلفة يكتب اليها بما عنده منها وما عند نفسه من نفسه وما يكون من الوجود المحصور بينهما في حدود الحب ...

تلك رسائل لم ترسل الى الحبيبة مع البريد، ولكنها تجوز من القلب الى القلب، يخاطبها فيها بالمكاشفة الباطنية والاحلام، ويصف بها حالة في نفسه، وينتج تاريخا من وجوده العاطفي. وهي ليست وليدة قلب منتم فقط او خيال في وهج الحميم، ولا هي من رهشات فواد جاش عواطفه، واشتعلت مشاعله فحسب، بل فيها من الجولات الفكرية الوعية وقدح زنهاد العقل الناتج النافذ الى داخل الامور ما يرينا الكاتب رغم فوارة قلبه وصخب شعوره في هدأة من الادراك وسكينة فكرية، في (اوراق الورد) عقل الاديب لا قلبه فقط، وفيه بيان الفنان ايضا.

يبدأ الرافعي (اوراق الورد) بمقدمة بليغة من الالب العشقي، يحيط فيها بتاريخ الرسائل في الحب احاطة بظلمتها بما على سعم معلومات من احوال الاقدمين، وعلى طول باعه في اخبارهم ونواديرهم، فيعدد فيها مشاهير العشاق كطلون بني عامر وصاحبه ليلي، وتوبة ولبلى الاخيلية، وكبير وهرة، وجميل وثينة، وعروة وهفراء الى ما هنالك من ابطال عرفهم التاريخ في ميدان الحب. ثم يذكر اسما المشهورين من شعراء الغزل والشاعرات المتطرفات الجميلات الموفيات على الحب امثال: جتان صاحبة ابوي نواس، وفضل الشاعرة جارية المتوكل. ومن ثم ينتقل الى ذكر المؤلفات القريدة في ادابنا العربية التي يقوم منارها على الحب ومعانيه واعله واخبارهم ونواديرهم واشعارهم ككتاب الزهرة الذي ألفه الامام محمد بن داود الظاهري فقيه اهل العراق، وكتاب مصارع الحماق الذي وضعه ابو بكر البغدادي السراج ورسالة الجاحظ في المحق والنساء ... الخ غير ان الرافعي لم يؤ في تاريخ اداب العربية احسن من كتابه الرسائل العشقية وابدع في تدبيجها (لان الكتابة في معاني الحب لا تحتل الصور والفصول وضاعة الالفاظ والترايف بالكثير منها على القليل من المعاني؛ ويسمج فيها خاصة ما تراه يحسن في غيرها من فنون الكتابة كالقوسع بالقل والرواية وتشفيق الكلام بما يلامرك معنى والطنيان في العبارة بذلك وما اليه وكل شيء فهو يصلح مادة للكتابة الا في هذا الفن من رسائل الحب. فان ما في القلب والروح وفلسفة العواطف وترايف الجمال باطماني الكبيرة على الشعر الواحد لا وحي اللغة بالالفاظ الكبيرة على المعنى الواحد (١٠٠).)

وينتقل بعد ذلك الى القول (فانت ترى ان الابد العربي قد انطوى على ^{١٧}مجبوبة من هذا
 الفن بقيت في الغيب الى عهدنا هذا ونرجو من فضل الله ان تكون كيناً الثالثة قد اظهرتها
 واستعملت بها. وان تقول العربية اذا تواصفوا كتب هذا الباب في بيان اللغة ^{١٨}الغريبة
 : «هكأنهم اقرؤا كتابه» ثم ييسر الراجعي في مقلة صغيرة بعد هذا المدخل في تاريخ الحب
 السبب الذي من اجله ^{١٩}اصحى الكتابة (باوراق الورد) قال (هذا كتاب اوراق الورد فحفظني من حدث
 في سبب هذه التسمية قال «كانت معها ذات يوم وردة لا ^{٢٠}اريد ايها تستغني الاخرى فجعلت
 لها ساق من حقاوتها تلمسها مرة صدرها ومرة كفتيها والوردة بين ذلك كأنما تنمو في
 شعاع ^{٢١}وندى اذ رايتها وقد تفتحت وتهدلت حتى لحسبت انها قد حالت اوراقها شفاها
 ظمأى ثم تأملتها شيئا ثم نحت الى بصرها وقالت ما ارى هذا الحب الا كورق الورد في حياته
 ورقته وعطره وجماله ~~ولا اوراق الورد~~ ولا اوراق الورد الا مثله في انتشارها ^{٢٢}على اصابع
 من يمسها اذا جاوز في مسها حنا بعينه من الوقوف ثم في تغترها على الحاج من يتناولها اذا
 تابع الحاحه عليها ولو بالتهدد ثم في ^{٢٣}عقدتها على ان تتحلل او لاوي ان لم يمسكها
 مع بنائط الرقيق حذر من تكون في يده ... لانها على ^{٢٤}بيته فن لا وردة. ثم دنت الشاعرة
 الجميلة فناطت ورنثها على عروة صاحبها فقال لها وضعتها رقيقة نادية في صدري ولكن على
 معان في القلب كاشواكها ... فاستضحكت وقالت فاذا كتبت يوما معاني الاشواق فمسها اوراق
 الورد وكذلك سماها ^{٢٥})

(١٧) يشير هذا الى كتابيه اب بغيره: رسالتي الى عزيز، والى باب العزم.

(١٨) اوراق الورد ص ١٨

(١٩) اوراق الورد ص ١٩

السحاب الاحمر

كتاب يدور معظمه حول المرأة في حبها ومغضا ولومها. ولا شك بان الرافعي كان في حالة
 مصيبة جياشة حين استقطر كلمات هذا السحاب كما يصف ذلك نفسه بقوله ((وبقد استوحيت
 من ارواح فيها الحبيب والبنيفض والصديق؛ والمظلوم والظالم لنفسه، ومن عقله قلبه، ومن حبه
 ينفعته؛ وفيها اضعف ما عرفت من القول واقواها؛ فمنع هذه السماء توكفت هذا السحاب؛ واني
 لاشهد اني في بعض فصوله كتبت احابي من الحب ان ينتقص، فادبر الكلام على ذلك فيلتوى،
 ثم اراه لا ينقاد ولا يتابع الا على خلاف ما اريد؛ فاذا اخذت في المذهب الذي يعن لي
 اتفاقا وعرضا تحذر الكلام تحذر الدمع من حيث لا يظنك احد ان يفيض او يثقل؛ لانه عند
 اسبابه الباطنة ...)) واكثر الكتاب غيظا وحسنا وسخرية بالمرأة قال . (قال بعضهم ~~الزاهد~~ الزاهد
 عظيم اني رايتك الليلة تمشي في الجنة فقال له الزاهد ويحك اما وجد الشيطان احدا يسخر
 منه غيري وغيرك. وقال رجل لامرأة اني رايتك الليلة في الجنة فقالت له = ويحك تقولها من غير
 ان تشكر فضلي عليك مع اني ادخلتك الجنة ...)
 ومن اجل وصفه جولته الوصفية عن الحب ما تحدث به عن حب الام في قصة والدته اضاقت
 ولبيها الصغيرين ثم اهدت بعد ذلك اليهما قال (الحب ما الله الحبالا لهفة تدر عديرا
 في الدم وما خلقت لهفة الحب اول ما خلقت الا في قلب الام على طفلها تراه وتحنو عليه ولن
 يحفظها للعالم الا هذا القلب نفسه. ولقد يكون عمر الطفل يومين ولكن لهفة امه عليه
 وحفظها ~~الله~~ حفظ ~~عليه~~ ^{عيني} تجعل له من الحب عمرا متظاولا يتقام به الاقنار العادية عليه
 في مسارحها ولو لا ذلك لحطمت هذه الاقنار كما تحطم كل طفل اهمله ذوو عنايته. فلهفة
 الام على طفلها كانت قوة سنين عددا في جسم الطفل؛ ومن ثم لم يكن الحب الصحيح في ~~الحي~~
 مظاهره الا حب المرأة لبني بطنها ...). وفي الكتاب فصول ثلاثة هي سير نفسية ~~الشيخ~~ الشيخ
 علي والشيخ احمد والشيخ محمد عبدو. وقد نهج فيها ~~نهج~~ ^{نرجا} روحانيا. فهو انا اخ حياه
 انسان لا يؤرخ منه الحوادث ~~التي~~ الخارجية وانما يتتبع تموجات روحه ولا يرسم غير خطوط
 نفسه من ~~التي~~ ^{الرائح} بمنزل وصفه للشيخ عبه (لست اري على اي روح نبت هذا الرجل ولكن الذي

اعرفه انه حين اتمر ففضج فعلا اذاق الناس من نمره طعم معجزة الفكر العربي ...
 كان منظويا على حقيقة روحانية يسطع ضياؤها في عينيه وينتشر على ما حوله فلا يشعر من
 يجلس اليه انه جالس مع الرجل ولكنه مع النفس العالية التي هي فيه وكان اعظم هبة من الملوك
 لان هؤلاء يحيطون انفسهم بالديوان والمواكب والاسلحة وكثير من ضروب التوقير والتعظيم
 اما الشيخ فكنت تراه حيث رايتك كذا لمحراب حيث يكون لا يقف عنده الا من وقف ليتخنع وما
 نكرته الا ذكرت قول القائل في هذه الصورة الانامية آثم والملائكة له ساجدون^(١) ...
 قال الاستاذ سعيد العريان (السحاب الاحمر كتاب كامل لحنف منه فضلا او فصلين في اوله
 وشيئا من فضول القول في سائره تجد فنا في العربية لا يقدر عليه الا الرافعي . فجزه من
 قصته او انسبه اليها فانك واجد فيه اوجبا يستحق الخلود وبيان يزهي على البيت^{البيطار} وشعرا
 وحكمة ما زال الالباء ينورون عليها حتى وجدوها في ادب الرافعي^(٢) ...)

(١) (سحاب الاحمر د.م. ١٢٦)

(٢) حياة الرافعي رحمه الله ١١٤

قرونا لا تجد من يبين عنها ابانة الـــــرافــــــــــــــسي^(٢)

(١) الرسالة عدد ١٨٦ السنة الثامنة ٢٥ يناير ١٩٤٧ و١٠٧

(٢) " " " ١٨٥ " " ١٨ " "

مركز الراجعي الاديب

ما قرأت بياناً في لغتي استحوذ على مجامع نفسي كالذي قرأته في ادب مصطفى صادق . فقد بلغ مني مبلغاً نصيباً بأسلوبه ، وما زجني بقوة عجيبة نفذت بها من قراءة ذاته الى قراءة ذاتي حتى أصبح عندي دون ريب كاتِبُ البحث في ادبنا الحديث وصاحب القلم المعجز . رابت في ادبه ضرباً من البيان الطاهر من غيبات النفس وسبحات الروح ، ما جعله في نظري قريح دهره في الادب المعاني بين كتابنا اليوم ، وسخاً فريداً من التبيين عن خواجِ القلب . وهو لا يذكرك بتجدد من افذان البيان ، ولا احد يذكرك به على الاطلاق ^(١) فذهبه في الكليمة من صنع نفسه ، وهو ثمره درس طويل وجهاد شاق ، اختلطت فيه مذاهب بذاصب ، وتداول عليه ادباء وادباء من كتاب العربية الاولين ^(٢) لم يترسم الراجعي في بيانه اقدام غيره من ادبائنا للسالفين ، ولم يطبع على فرار سواء من المحدثين ، بل كان وحده خلاص المعاني في جوه الخاص بديره ^(٣) كما يشاء بانكار نبيلة نزلت كلمات كانتها التقود الذهبية فوق العمر . وحياته الادبية شكل فني خاص تمكس دونه وحده فلا تست بمله الى احد من القدماء ولا الى احد من المعاصرين وذلك كان طريقه نفسه : «والادب ان كان تقليداً فهو ادب متحط لا يجمل مدرسة يحتذى عليها وينتجج بها وان كان ابداعاً ، وليس الابداع مدرسة تكون بالتعليم والتقليد وينتجج بها الواحد والمائة والالف على طراز لا يختلف ^(٤) وهكذا اختط الراجعي لنفسه نهجا خاصا في حياته الادبية وشاد البيان العربي صرحاً جديداً يفرد به ، فكان عذوة الصاد . وادبه ادب ممتاز في اكثره يفتش عن نزوع الى معلاة الفكر ينشلع الراجعي به الى فوق بالارتقاء في افوار الضمير ليصل الى المنرس الالهي في كيان الانسان . وارجع ما في ادب الراجعي ادائه المحكم في محظنه وبيانه المتعالي ، ورمزته الشفافة . فهو من امهر من فصل الالفاظ على قدود المعاني ^(٥) «سلم من الشوائب الاعجية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين ، فكاني وانا اقرأه اقرأه من قلم للبرد في استعماله المساواة والبأس المعاني الفاظاً سابعة مفصلة عليها ، لا طويلة فتتعمر فيها ولا قصيرة عن مداها تودي ببعض اجزائها ^(٦) وكاني بالراجعي يصف انشاءه في احدى رسائله الموجهة الى صديق له مجهول بقوله : «فاني رايتك باسم لا قاصرات عن قلبك تنزل دونه ولا زائدات فخر عليك وتتجاوز به مسددات يقمى فيه ^(٧) ذلك وصف ينطبق على اسلوب الراجعي اتم انطباق ، فهو من اقدر الذين يمكنون المعاني في قوالب الفاظها سبكاً محكماً لا يزيد ولا ينقص ، ويعود ذلك الى معرفته اللغوية العميقة معرفة بعيدة المدى ادرك فيها معنى الاجتهاد والاستنباط حتى وقف موقف الاستاذ من اربابها الاقدمين وانتمها السالفين الخالدين ^(٨) . . . فعمقته . . . انما ترجع لاتصال الوثيق بقرائنا الادبي القديم دون غيره فنهل من شرابه العذب ، وتغذى من خلاصته القوية العالحة فاذا بها تتمثل في أسلوبه وتتخلل في ادبه وتهديه وتتأرجح في تفكيره وتعبيره ، وتتدجج في تقديره وتذكيره ، فاستطاع ان يشق للادب القديم التقليد سبيلاً في الادب الحديث ^(٩) المتجيد له اطلاع واسع على مخطوط هذا التراث اللغوي ، فهو طويل الباع في معرفة

مغاليق

(١) نهاية الراجعي سعيد العريان رجب ٥٩

(٢) دمج القلم للراجعي الجزء الثالث رجب ٦٢

(٣) كلام المستاذ احمد لطفي السيد كج محمد اسلوب الراجعي ، ذكره العريان في كتابه حياة الراجعي رجب ٥٢

(٤) رسالة المستاذ احمد لطفي السيد رجب ٦٢

دقائق اسرارہ، لذلك كان بجابه رواه وثقائه كند ذي ثقه عظيمه من نفسه، حتى انه كثيرا ما كان يتعلم منهم ويفتخر. قال عنه مصطفى كامل في جريدة (الواحد) ^{١٩٠٤} ما في يوم اذا ذكر فيه الراحل قال الناس هو الحكمة العاليه مصبوغة في اجمل قالب من البيان وقد كان واتقا من نفسه مؤثرا بالمركز الذي تسنه في عالم الادب واعبا مقدرة البهائية، لذلك عندما ساله يوما من الايام محرر (الدنيا) عما سيقوله الناس بعد موته قال: «هذه الكلمات من اقواله ^ط : حجة العرب، مؤيد الدين، حارس لغة القرآن، صدر البيان العربي، الاديب

هكذا حدد الرائي غاية الادب، وهي تقم على ان يوجه كل اديب ^{واعيته} ~~ويعلم~~ الباطنية نحو غيب كل وجود والاتصال بجهوله . وهذا المجهول هو عالم ما وراء الطبيعة ، عالم الريح والافكار ، عالم البقاء والكائنات خلق الغناء . المجهول منذ قديم الزمان محط انظار الشعراء الخالدين ، والعلماء الباقين ، ولا دباء الباقين . فما خلد كاتب الا وقد طرق باباه ولا تأيد شاعر الا وقد حطم قنارته على ^{عشيقته} لغيبته السحرية ، كأن في عبق الانسان رغبة سليقية للتفكر بابعاد هذا الكون ، واستنطاق مصون الانغاز . ذلك لان حقل الاختبار البشري الذي يتوافر فيه الدليل العلمي انما هو حقل ضيق محدود ، والانسان جميع بشطاته الذهنية ، ^{شغري} ~~شغري~~ بتدريج الحجب المروية ^{والثغرات} ~~والثغرات~~ الى ما هو كائن خلف الظواهر ^{تقف} فلا عند حد من الحدود بل يطلب الاستزادة فوق ما يعلم . وهكذا نراه لا يستكن الى يقين حسن ، ولا يركن ^{لرأى} ~~الى~~ الى ما عين ، كانه دائم الرغبة للنفوذ الى المجهول وراء المعلم ، والخفي وراء المنظور ، والنفس تندفع باستمرار ورائه الاشياء في كل شيء . كي تستقطب الا وجود من كل وجود ^{وتعلم} ~~وتعلم~~ عما التف حول الموتي كجو سحري من الخيال من الخيال . هي دوماً وابداً تسقط المعلم بوجاً من مجهولة ، فيعمل الفكر بلا هوادة على استنطاق الاسرار كآلة مفعي عليه الا ~~لنستمر~~ في غير نفق مكتمر من الخواصم والعقد ليكون على الدوام في اشتياق الى النور القائم في عتمة الغيب . ومن هو العالم الذي يجروا على القبول بان ما يعلمه هو النهائي في الوجود . ومن هو ذلك الرجل الذي يثبت بان هذا الحجر المنطرح على قارعة الطريق قد ادرك في كامله . ^{اصطدته} ~~اصطدته~~ حينما يتدرون بنتائج العلم ، فالمعلم ذاته موجة علم في يم اللامعلم . وحينما اتجهت النفس ~~الى~~ ~~المعلم~~ بظلال من الخيال ، وسمعت نداء المجهول كانه في اقتراب دائم من هذا الكائن خلف المعارف ، وكانها في الغربة من دارها يم تعلم . وما هي الانسان ؟ ومن هو في بحر اللا نهائيات . وما قيمة كيانه الحقير وسط شاسع الاكوان العائمة حوله . وما هي طاقة اعماله وهو جرتية ضئيلة تتارجح في فضاء هذا الوجود ؟ ان ما نعرفه ذرة معلومة في المجهول العلم ، لان في كل شيء واضح سراً فاضاً في الليل سر النهار وفي نهار سر ليله . في الدمعة سربسة الشفتين ، وفي البسة سر دمعة تتفرق في المهد سر اللحد ، وفي اللحد سر مهد لا منظور . وفي المشرق سر مغرب يبداء وفي المغرب سر مشرق يلوح . في البداية سر النهاية وفي النهاية سر ^{شبه} ~~شبه . والحياة كلها اسرار والغاز عوليس في الكون كله معلم لا يمكنه المجهول . فابنما يصمت نظره استشفيت بواطفه ^{طرح} ~~طرح~~ رابضة في ثنايا الظواهر . وهما اتسمت المعارف ففي كل حل يجده العلم الف من الانغاز وحول كل وضوح هالة من الغيب هي سر قاهر مكتم كل العين من النظر يغيب اليه . وما الدين ^{معناه} ~~معناه~~ الواسع بادي ذي يد . الا تعبير من هذا الميل الجارف نحو المستتر خلف مسرح الوجود . هو استجداد بالاله المجهول . والدين كان ولما يزل ولن يزل ، ما دلم المجهول مجهولاً في هذا الكيان~~

الضعيف المعلم «ولو حددت الحقيقة لما بقيت حقيقة، ولو تبس الملائكة بهذا اللحم والدم ليكمل ان يكونوا ملائكة... ولهذا ينبغي كل حقيقة من الحقائق الكبرى كالإيمان، والجمال، والحب، والخير، والحق - ينبغي محتاجة في كل عصر الى كتابة جديدة من اذهان جديدة»^(١)

ان المجهول غاية كل ادب يهدف من البقاء، وديعة في هيكل الخلود، لانه اسى ما يطمح الانسان اليه في القائل الذهني. وهكذا يسمو الرافعي بالادب الى درجة التفلف والدأب وراء الحقيقة الانسانية. وقد طبع هو نفسه على غرار هذا التحريف الذي سته فكان في كتبه غواصاً ماهراً في هم الحياة لا تروح نفسه الى القرب الواضح من المعاني ولا يطمح لغير المجازفة بعيداً وراء الوهيمات المعقدة. فهو من هذا القبيل يحنق المصائب ويكفر من المخاطر لاصطياد الحقائق الازلية. لذلك نراه يرمي بالادب الى ابعد المقائل المغلفة، ويدفع به الى ظلمات المجهول واعتكاز الخيب. ومن هنا كان غرضه احياناً «فهو» يحمل الفكرة في ذهنه اياماً يعاودها في خلالها الساعه بعد الساعه بالتقليب والتقليب والملاحظة والتأمل حتى تتشعب في خياله وتتكاثر في خاطره، ويكون هو لكثرة النظر والاجالة فهو قد سما في فهمها على الذكاء المؤلف. فاذا اراد ان يعطيها الصورة ويكسوها اللفظ جلاها على الوضع المائل في ذهنه واداءها بالابجاز الغالب على فنه فتاتي في بعد المواضع غامضة ملتوية وهو يحسبها واضحة في نفسه وضوحها في نفسه. وذلك عيب المروء من صاغة الكلام وراغة الحكمة كابن المقفع والمنبني وسكال وول فاليري. ونشأ ذلك العيب فيهم انهم يطيلون النظر ويديمون الفكرة ويعتقون البحث حتى تنقطع الصلة بين عقولهم وبين القاري. وتتسع المسافة بين معانيهم والفاظ اللغة فيكتبون وافهامهم سابقة سبق الريح واقلهم متخلفة تخلف الجسم. ويتردد في هذا الغموض ان سعة العقل في النواحي تستلزم ضيق اللسان. فلا ترى الفصول والترترة والرفرة والغثاء الا حيث يضل ذهنه ويقتصر النظر ويقتصر المادة. والرافعي كان يعتمد في اسلوبه لانه ينفق عليه من جهده ومن ذوقه ومن فنه ما يجعله انبى بوضوح الروح ويصلب القلب وتفتح المعاني»^(٢)

كان الرافعي قوفاً بالوقوف اهام المجهول. فهو يتساءل بالحاج عن مشاكل الوجود، وادبه مغمم بهذه الصرخات النوحية التي يعمدها الانسان من اقصى جهته لا يدرك ما يختبئ خلف الستار البهم. فخلع نفسه يقول «سبحانكم يا من لا يقال لغيره سبحانه». خلقت الانساق سؤالا عن نفسه، وخلقت نفسه سؤالا عنه، وخلقت الاثنين سؤالا عنه. وما دام هذا الانسان لا يحيط به الا المجهول فلا يحيط من كل جهة الا سؤال من الاسئلة. ولا عجب اذن ان يكون له من بعض المسائل جواب عن بعضها. هذه هي الطريقة (الطريقة) في دقائق الامور، تجيب الانسان الضعيف عن سؤال بسؤال آخر^(٣) وقال ايضا «ان شئين هما اروع ما نعرفهما تجهل احدهما ذلك المجهول الاعظم المختبئ وراء العقل يتراعى قفراً في قعر الى ما

(١) الرافعي: ديوانه المجلد الاول رقم ٧.
(٢) كلام احمد بن الزيات. الرسالة عدد ٥٥٢ في ٩ مايو سنة ١٩٢٨ وم ٧٦٥
(٣) رسالة ١٠٠٠ من رسائله رقم ٥٢

لا نعقل من اسرار الا نهاية والثاني ذلك المعروف الاعظم المختبىء وراء القلب بتعقد صفة في صفة الى ما لا ندرك من اسرار النفس»

ان الالتفات الى المجهول يوجب حيز في الاماكن الرجوع من لدنه صفر البدين ميرة كل ادب خالد به يسمو الانسان الخاص الى اسائه العلم ويملو بذاته الشاملة فوق ذاته الخاصة ويهز المجتمع الانساني هذا عنيفا بدموه والاشم فكل راحة فنية لا تقهر القيادة في داخلها حول هذا الاله الملم، ولا ترمينا في بحره الرجاف يكون لحدوها في المهد . وادب الراقعي في معظه تشوف الى هذا الاشئ في كل شئ وخلف كل شئ، فتحسبه انه يقف بك على ^{الذروات} النوازل النافذة الى ما وراء الخيم وانه يهبط بك في

الامام خلف المهارى ^{في} ويسطع بك الى ما وراء قطبي الولادة والموت يسبح بين اللامتناهيات يبعد في المروى وتسلم في المصعد، كانه لا ينزع ليخبر سني المواب وخطير ^{المستحي} العلي وسحب المدارك. ففي قلب الانسان اقوار ومهار ^{تلقاها} تقابلها معاهد ومرتفعات، وبين الراقعي نفاذة بلا ملل الى كل هذه الابعاد ليدرك الا مدرك . لذلك اتبهم على الكبريين ^{فهم} ادب الخاصة كان ينشئ انشاء في اى فروع الادب ليضيف ^{مروءة} جديدة الى اللغة تملو بها وتعمز مكانا بين اللغات وشبابنا - اصلهم الله - لا يعرفون الادب الا ملهلا

وتسلطت ^{لما} لا يتشدونه للذة العقلية وسمو النفس ولكن ^{لما} يتشدونه ^{لما} لذة الملل وازجا الفراغ . . . لم يكتب الراقعي الكتابة التي ينشئها اكثر كتابنا ^{ليتملأ} غرائز القراء بالمباراة المتهاة والقول المكشوف. وعند المتأدبين من ^{ناشئة} تأسف اليوم ان قيمة الادب هي بمقدار انطباقه على امواه النفس وارتياحها اليه وقدرتها على ان تسخره ^(١) بلا كلف ولا عناء ^(٢) وقد قال الراقعي ذاته في هذا الصدد ما يلي (واللذة بالادب غير التلهي به واتخاذها للعبت والبطالة فيجي موضوعا على ذلك فيخرج الى ان يكون ملهات وسعفا وضمة فان اللذة به اتية من جمال اسلوبه ولاقحة معانية وتتاوله الكون والحياة بالاساليب الشعرية التي في النفس وهي الاصل في جمال الاسلوب ثم هو بعد هذه اللغة متفعة كله كسائر ماركب في طبيعة الحي اذ يحس الذوق لذة الطعام مثلا على ان يكون من فعلها الطبيعي استمرار التغذية لبناء الجسم وحفظ القوة وزيادتها؛ اما التلهي فيجي من سخط الادب وفراغ معانيه ومواناته الشهوات الخمسة والتعاسة الجوانب الضيقة من الحياة وذلك حين لا يكون ادب الشعب ولا الانسانية بل ادب فئة بعينها واحوالها؛ فان ادب صناعته او ادب جماعته، غير ادب قومه وادب عصره؛ احدهما الى حد محدود من الحياة والاخر عمل جامع مستمر متفنن؛ لان عمله الادبي هو وجوده، وكل شئ في قوله لا يبرح يقول له: اكتب . . .

كثيرا ما نفهم من الادب الذي يخطرنا الى التفكير العميق. فما نرغبه هو الوضع التلم والسهولة لاننا لم نتمود بعد على ان نساهم مع الاديب في خلق المعاني البعيدة والارتفاع الى الطباق العليا من الخيال. فاذا افصحت الكلمة بوضوح تلم عما تريد ان تقوله، لا عما ^{تفكر} تفكر عليها قوله، استسغنا الادب والا حططنا رحالتنا عند الفاظه. وادباونا ايضا لا ^{يجوز} يجزئنا على الرلح تحت سقف المشاكل الابدية، فلا

يمبرون الى المنطقة الباطنية حيث تتاجح حروب المبهمات وتستمر النزاع بين الرغبات المتعارضة والاماني المتضاربة، ولم يغفوا من الحياة مراياها الشريفة لانهم يسترهبون الغوص في تلك الاعمال المدفونة المدبرة والباطن المعتمة ولا يعرف ادبا مقيدا مسرفا في التحنن غالبا في الاحتياط كادبنا العربي الحديث بعفته اطلعه وهم يفكرون في الناس اكثر ما يفكرون في انفسهم حتى اطعموا الناس فيهم واصبحوا عبيدا للجماعة وخداما للقراء^(١)»

لقد كره الرافعي كثيرا واسي فهمه^(٢) وما ذلك حسب اعتقادي الا لان ادبه ادب الخاصة لا العامة، ادب الروح والاسرار، ادب البعيد في الاقصى، ادب حاول فيه ان يثير هذا الغيب المبهم حول القاري، لان الغرض الاول للادب المبهن ان يخلق للنفس دنيا المعاني في الملازمة لتلك النوبة الثابتة فيها الى المجهول والى مجاز الحقيقة . وان يلقي الاسرار في الامور المكشوفة بما يتخيل فيها ويرد القليل من الحياة كثيرا واقفا بما يخاف من معانيه ويترك الماضي منها ثائبا قاربا بما يخلد من ^{نفسه} ويجعل المولم منها لذا خفيقا بما ^{سبح} يلهي فيه من العواطف، والمطلوب متما ^{عن} حولها بما يكشف فيه من الجمال والحكمة . ومدار ذلك كله على ابتداء النفس لذة المجهول التي هي في نفسها لذة مجهولة ايضا، فان هذه النفس طلعة متقلبة لا تبني مجهولا صرفا ولا معلوما صرفا كأنها مدركة بغطرتها ان ليس في الكون صرح مطلق ولا خفي مطلق وانما تبني حالة الله ملازمة بين هذين يثير فيها قلقا او يسكن منها قلقا في المجهول نروي ظما الروح لانه غاية الغايات في حياة الانسان العاقل^(٣) ^{في} كان وليس بكاثر بعد وما سيكون ولم يكون^(٤) حتى الان وما استحال ولم يمكن امره هي الغاية التي تعمل النفس لاجلها دائما ابدا، وليس البتة ^{هو} ما كان^(٥) لان الكائن من خصائص المعلم والمعلم لا يشفي غليل النفس فيظل الانسان في عالم الحيرة والارتباك ومن هنا كان لكل امرئ سؤال يتردد بين نفسه وبين المساء ^{فعل} يقول اللهم هذه القوة فابن الرزق، وآخر يقول وهذا الرزق فابن القوة وثالث يصيح هذه هي العافية وهذا الرزق فابن السعادة والشوخ علي يقول اللهم انه لم يبق من الانسانية الا حشاشة تسوق بنفسها وكل رجل من هؤلاء مقلدة فابن الاصل^(٦) ولما كان المجهول اسنى المراتب التي تتوف اليه النفس كان على الشاعر الحق ان يضعه في كل معلم في الباطن والخارج . وهكذا يصبح الشعر هو ايضا^(٧) في اسرار الاشياء ذاتها، ولهذا تتنازع قريحة الشاعر بقدرتها على خلق الالوان النفسية التي تصبح كل شيء وتلوته لاطهار حقائقه ودقائقه حتى يجري مجراه في النفس ويجوز مجازها فيها^(٨) الشاعر هو الذي يشعرك بمجهول هذه الحياة على حد قول الرافعي .

كانما الكون غيدا بحجة تطل مشرقة من خلف استار

تلك طلائع الوجود كما يقول الشاعر ابلها ابو ماضي :

(١) من كلام الدكتور محمد عيسى في كتابه مع النبي صلى الله عليه وسلم الجزء الاول

(٢) راجع ما كتبه محمد عيسى في الجزء الثالث من حديث الرافعي .

(٣) راجع انتم الجزء الثالث د. ٢٧٤

(٤) من كلام Paul Valéry في كتابه L'âme et la danse د. ٦١

(٥) كتاب المصالح للرافعي د. ٢٥

جئت لا اعلم من اين جئت ولكني انيت
وسابقي سائر ان شئت هذا لم ابست

ولقد ابصرت قداسي طريقا فمشيت
كيف جئت كيف ابصرت طريقا

لست ادري

اجديد لم قديس في هذا الوجود
هل انا قائد نفسي في حياتي لم مقود

هل انا حر طلبتي لم اسير في قيود
اتمني انني ادري ولكن

لست ادري

الاديب هو الذي يحمن الخيب ويرينا مجاز الحقيقة لا الحقيقة .

المشكلة . من هنا الاديب مثاليا يفيض على كل شيء شعوره فينبث فيه كهل رب الحياة العاطفية جاعلا ^{له} قلبا ينبض وهلا يدرك كان الوجود برمه انعكاس ما يستحرفني باطنه . الاديب يخلق الوجود خلقه ثانية في ادبه لذلك كتب الرافعي في مقال له عنوانه (حديث قطين) ^{///} قال : « ان مثل هذا الموضوع يشبه تكليف الطالب الصغير خلق مرتين لا الحديث عنهما ؛ فان اعادة الانشاء في مثل هذا الباب الوهبة عقلية تخلق خلقها السوي الجميل قابضا حيا ، كانت وضعت في الكلام قلب هرز او جاءت بالهر له قلب من الكلام . وابن هذا من الاطل في الحادية عشرة وما حولهما ؟ وكيف لهم في هذا السن ان ينتجوا بدقائق الوجود ، ويدخلوا ^{في} اسرار الخلية ، ويصبحوا مع كل شيء رهنا بعلمه ، هند كل حقيقة موقوفين على اسبابها ؟ وقد قيل لهم من قبل في السنوات الخالية « كن زهرة وصف واجعل نفسك حبة قمح وقل » وانما هذا ^{نحو} غاية من ابعد غايات النبوة والحكمة ؛ اذ النبي تعبیر الهي تتخذ الحقيقة الكاملة لتتطبق به كلمتها التي تسعى الشريعة ، والحكم وجه آخر من التعبير ، تتخذ تلك الحقيقة لتتلقى منه الكلمة التي تسمى فن ... ان الكون كله مستقر بمعانية الرمز في النفس الكاملة اذ كانت الروح في ذاتها نورا وكان سر كل شيء هو من النور والشعاع يجري في الشعاع كما يجري الماء في الماء وفي امتزاج الاشعة من النفس ^{والجسد} والمادة تجارب روحاني هو بذاته تعبیر في البصيرة وادراك في الذهن وهو اساس الفن على اختلاف انواعه في الكلمة والصورة والمثال والنخبة ؛ ^{أي} الكتابة والشعر والتصوير والحفر والموسيقى ^(٢))) الادب نظر الى الطبيعة وتفسيرها ^{نفسها} على ضوء النفس الانسانية . والانسان وحده لا سوار يعيل الى معرفة المجهول الكائن خلف الظاهر ، لذلك كان الاديب نفاذا الى دوائر الامور ^{ويعلم} والمشاهد ليلتقط الخفي كما براه . واللحن ^{الطبيعي} هو المنبت من الروح التي تداور الامور ليرى الراقي مجاره ، وسمع السامع صمتها ، وبقوا القاري فيها من خلال (انا) ، اذ ذلك يحمل التعاطف بيننا وبين الطبيعة لانه في الحق تعاطف بيننا وبين انفسنا . ولانسان في مجمل حياته ^{المعاشية} تحت سيطرة الحواس وذلك بحجب عن نفسه . ولكن

ب =

الثانية عشرة

١١) صوانت واطلي للولاد الصغار عام ١٩٢٤ في امتحان شهادة اتمام الدراسة الابتدائية .

(٢) وهي راقم الجزء الاول وجه ٤٢

الفن بجلو هذه الصفة فيدرك ^{الحاجز} المرتفع بيننا وبين انفسنا، ويكسر السدود القائمة بيننا وبين الطبيعة، فتكشف الستائر من وجداننا، وتسترق البراقع السبكية من بصيرتنا، وتكشف لنا كمين الحياة لتذاع لنا حقيقة الوجود التي تربنا الاشياء من خلال نقابنا / فالانسان واه من الالهية لإيمانه الا الافكار والنزعات، وتنتى احتل الفكر وتمدد، ثم ضرب فتمكن، ثم غار بجذوره ^{تتبع} ~~والفصل~~ بفروحه صبغ الاشياء كلها في عيني صاحبه بالوان منه حتى كأنه لا ينبعث في اشعة النظر الا ليلبس كل ما تلظره العين فلا يرى المرء فيها يرى الا صورا من فكره كما عيبت اخيلة السبيل في انوارها على حائطها فاذا هو تاريخ وحكاية وهل وحياة واذا هي على انه حائط ^{١١} لا شك ان في الانسان (انا) متى استكملت نضجها عادت الحقائق كلها لاثاني في هذه الدنيا الا منها لترجع في اياها الى (انا) فيصبح هذا الكون باجمعه شاة بيضاء تمر عليها اخيلة الباطن في الانسان اذ يرى يكون بالواقع هو تلك الاخيلة عنها لا غير، لذلك كانت / اشواق النفس هي مادة الادب؛ فليس يكون ادبا الا اذا وضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى او كان متصلا بسر هذه الحياة فيكشف عنه او ^{يضيء} ~~يضيء~~ اليه من قريب، او غير للنفس هذه الحياة تغيرا يبعث طباقا لغرضها واشواقها؛ فانه كما يرحل الانسان من جو الى جو غيره، ينقله - الادب من حياته التي لا تختلف الى حياة اخرى، فيها شعورها ولذتها وان لم يكن لها ولا وان؛ حياة كملت فيها اشواق النفس، لان فيها اللذات والآلام بغير ضرورات ولا تكلف ولعمري ما جاءت الجنة والنار في الاديان مبعثا؛ فان خالق النفس بما ركبها فيها من العجائب، لا ^{يكون} ~~يكون~~ يحكم بالعقل انه تمام خلقها الا بخلق الجنة والنار معها؛ اذ هما صورتان ^{المكتنيتان} ~~المكتنيتان~~ لا شواقها الخالدة ان هي استقلت مسددة او انعكست حائلة، وقد مع عندي ان النفس لا تتحقق من حقيقتها ولا تنطلق في انطلاقتها الخالدة فتحس وحدة الشعور بوحدة الكمال ^{١٢} - الا في لحظات وفترات تنسل فيها من زمنها وهشها ونفائضها واضطرابها الى (منطقة حياد) خارجة وراء الزمان والمكان؛ فاذا ^{صيرتها} ~~صيرتها~~ النفس فكانت انتقلت الى الجنة واستروحت الخلد؛ وهذه المنطقة السحرية لا تكون الا في اريحة؛ حبيب فائن معشوق اعطي قوة سحر النفس، فهي تنسى به؛ وصديق محبوب وفي اوتي قوة جذب النفس، فهي تنسى عنده؛ وقطعة ادبية آخذة، فهي ساحرة كالحيثب او جاذبة كالمديق وتظهر في رايه ففيه من كل شيء شيء .

« وهذه كلها تنسي المرء زمنة مدة تطول وتقصر؛ وذلك فيها دليل على ان النفس ^{برسائية} ~~الاحية~~ تصيب منها اساليب روحية لانعالمها هنيئة بالروح الازلي في لحظات من ^{الشعور} ~~الشعور~~ كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الازلية؛ ومن ثم نستطيع ان نقرر ان اساس الفن على الاطلاق هو ثورة الخالد في الانسان على الفاني به؛ وان تصوير هذه الثورة في اوهامها وحقائقها يمثل ^{اختلاجا} ~~اختلاجا~~ في الشعور والتأثير هو معنى الادب واسلوه ^{١٣} .

(١١) راجع الى اعزاء دهر ١٢٦

(١٢) راجع العلم الجزء الثاني دهر ٨٤٤

في دقائق نفسك بنفسه وخوارج قلبك بقلبه ولوامع روحك بروحه، وهكذا يلقنك دروسا هي اشرف ما يصوب اليه الانسان في انسانيته، فيكشف لك عن المعلم في المجهول ويربك المجهول في وضع المعلم // واماس علمه دائما ان يزيد على كل فكرة صورة لها، ويزيد على كل صورة فكرة فيها، فهو يبدع المعاني للاشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها، ويبدع الاشكال للمعاني فيوجد لها هي في الحياة، فكانه خلق لبتلقى الحقيقة ويمطها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفني^(١) // الاديب الحق يرى نفسه في الوجود، ولا يتعاطى الاشياء^{والمشياء} المادية الا من حيث انها اشعاع باطنه في الخارج، وصدى ما يتناغم في داخله من ترانيم والحن، فيفقه الوجود بحقله وتتطوي نفسه على العالم الخارجي ليخلقه خلقا ثانية حسب جبلته الانسانية العالية. والشعر هو // فن النفس الكبيرة الحساسة الملهمة حين تتناول الوجود من فوق وجوده في لطف روحاني ظاهر في المعنى واللغة والاداء^(٢) //

الالهام : ولكن اخراج المجهول من المعلم على ضوء مثالية (انا) لا يعود الى نشاط الاديب الا في اقله، فللسماء شركة في هذا العمل ولعني بذلك ان الاديب ابن الالهام // لا يرى الرأي بالاعتقاد والاجتهاد كما يراه الناس وانما يحس به فلا يقع له رايه بالفكر بل يلهمه الهاما؛ وليس يؤاتيه الالهام الا من كون الاشياء تمر فيه بمعانيها وتعبيره كما تعبر السفن النهر فيحس انرها فيه فيلهم ما يلهم وحسبه الناس نافذا بفكره من خلال الكون على حين ان حقائق الكون هي النافذة من خلاله^(٣) //

// وهذه الحاسة (الالهام) ... تكون في صاحبها الموهوب كما ^{تكون} حاسة الاتجاه في الطيور التي تقطع في جو السماء الى غاياتها البعيدة من قطب الارض الى قطبها الاخر بخير دليل تحمله، ولا رسم تنظر فيه، ولا علم ترجع اليه؛ ^{كما} تكون حاسة التميز في النحل الذي يبنى عسلته على هندسة ليست من كتاب ولا مدرسة، وحاسة التدبير في النحل الذي يدبر ملكته بخير علم الممالك وسياستها؛ وكثيرا ما يجي* الاديب الملهم من حقائق الفكر ومبانيها واسبابها واماها بما يخطي على فلسفة الفلاسفة وطم ^{المهنة} العلماء، ومثل هذه العبقري هو عندى فوق العلم لا اقل بل بدرجة ولكن بحاسة .

(١) روي العلم الجزء الثالث وجه ٢٥٠
(٢) ٢٧٧ " " " " "
(٣) ٢٧٧ " " " " "

« وبالإلهام يكون لكل عبقرى ذهنه الذي معه وذهنه الذي ليس معه؛ إذ كانت له من وراء خياله قوة غير منظورة ليست فيه، ومع ذلك تعمل كما تعمل الأعضاء في جسمه، هيئة متفاداة كأنها تنصرف على أطراف

العادة بلا فكر ولا روية ولا عسرها دامت تتجلى عليه^{١١} »

المجهول غاية كل أدب صاف رفيع، وهو أوسع من طاقة الإنسان العقلية^{لذلك} يفرض على الأدب بطريقة الهامية. والإلهام إلا رشاش نوراني تذره قوة فيبية من حين إلى آخر على الإنسان الذي يكون قد تمهد في باطنه قوة التقاط هذا المجهول سلفه بحمل القلام بينهما، لهذا يتنازع الأدب ذهنان؛ ذهن معه وذهن ليس معه يمدد بالحقائق من وراء قوة خفية منيرة للذهن الذي فيه. لذلك كان الأدب وقفا على الأدب يعطاه من خارج باطنه أي أنه يتسلهم تلك القوة الخفية الكامنة في الذهن الذي ليس معه .

الأسلوب؛ ولكن الرافعي لا يعني بذلك أن الأدب آلة لا غير يعبر ^{الغيب} بالخيال منه إلى الناس من دون أن يكون له عمل إيجابي يظهر من خلاله شخصية. فإذا كان الإلهام ضروريا كقطعة انطلاق، فهناك مرحلة خاصة بالأدب هي الأسلوب البياني، الإنشاء وهو الإنسان عينه هكذا قيل، به تظهر خصائص الأدب وتشتع ^{روحه} في الفاظه لأنها من صنعه بل من خلقه في حين أنه يستحضر الأفكار من خزين ^{الغيب} عالم هو الغيب، فينقلها بالإلهام ويعطها بالحدس والتلقين. أما الأسلوب فهو من سبكه، وبه يعرف لأن الكتابة لا تدرك عن طريق ^{الطريق} الفكرة المعاني، بل هي ولادة هناك شديد والم في بعض الأحيان. بالأسلوب يبرز طابع الأدب، بقدر ما يعمل الكاتب على تنقيح أسلوبه والمضي في إدارته حتى يحمل التساوي بين الفكرة واللفظة، بنفسها يكون خلقا لا مخلوقا وإشراكه العلماء للأدباء نوجب أن يتميز الأدب بالأسلوب البياني إذ هو كالطابع على العمل الفني وكالشهادة من الحياة ^{المنيرة} الفنية لهذا الإنسان الموهوب الذي جاءت من طريقه، ثم لأن الأسلوب هو تخصيص النوع من الذوق وطريقة من الإدراك كأن الجمال يقول بالأسلوب: ^{بالأسلوب} أن هذا هو عمل فلان .

« وفعل ما بين العالم والأدب، أن العالم فكرة، ولكن الأدب فكرة وأسلوبها؛ فالعلماء هم أعمال متصلة متشابهة ^{لهم} يشار إليهم جملة واحدة، على حين يقال في كل أدب عبقرى؛ هذا هو هذا وحده؛ وهم الأدب والنفس والانسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ولذلك فوضع الأدب من الحياة موضع فكرة حدودها ^(٢) كل نواحيها الأسرار »

« ودورة العبارة الفنية في نفس الكاتب البياني دورة خلق وتركيب، تنحج بها الالفاظ أكبر مما هي، كأنها ثبتت في نفسه ^{هائلة} شبابا، وأقوى ما هي كأنها كسبه من روحه قوة، ما هي كأنها زاد فيها بصناعته زيادة؛ فالكاتب الملمى تر اللغة منه في ذاكرة وتخرج كما دخلت عليها وطابع واضعها، ولكنها من الكاتب البياني تعرف في مصنع، وتخرج بها إلى

الى اسى مراتبها وانت مع الاولين بالفكر ولا تنسى الفكر والنظر والحكم، غير انك مع ذي الحاسة البليانة

لا تكون الا بجميع ما فيك من قوة الفكر والخيال والاحساس والماعطفه والرأي^(١)

جولة حول نظرياته في الاسلوب .

لرافعي جولات بعيدة المدى في التكلم من الاسلوب واهميته الادبية فهو من الذين اعادوه قسطا وافرا من العناية حتى لا تكاد نقول بان ادب^{الرافعي} هو ادب اسلوب في معظمه، ولذلك اجدني مضطرا الى التحدث عن موسيقية الكلمة ~~والكلام~~ ثم عن البيان .

الكلمة . اظهر الرافعي في تحليل الكلمة عبقرية فذة تتم عن حساسة مرهقة الى حد قصير، فقد استطاع ان يبيّن غور الكلمة بل اغوارها بفضل اطلاعه الواسع على تراث لغتنا، وان يضمن النظر في سرعجزها واجازتها، لذا لا ارى مانعا من المرور ولو سريعا على بعض^{الرافعي} العديدة التي حاول فيها ان يكتشف من قوة الالفاظ في الاداء، ويرجع نحتة للكلمة وسيله لبرقشة العبارات الى ان الكلمة عاجزة عن اخراج المعنى اخراجا صحيحا، لذلك كان يغرق في تنقيح الجمل ليتوصل بهذا العمل المضى الى ^{تقريب} المدى الكائن بين الكلمة الصوتية والمعنى الذهني، فهي بعد ذاتها جمود والفكرة حركة وحياة، والانسان يمر احيانا في جومن العواطف الجياشة والمشاعر الصاخبة تثب الروح بها وثبات يضيق الجسم فيها لبعده مداها، فينبض القلب نبضات كالقذائف نار محرقة بالأمها وبيومها وديمها تمر فيك كأنها الهم الطافي بامواجه المتلاطمة، اذا ذاك يحتقل اللسان وتخل قوى التكلم فيصبح الانسان وكأنه ابكم حوال هذه الفوارة الماعطفية، تلك حالات يخفف^{يضيق} فيها البيان لتتلحم البلاغة والفصاحة، وتحترق الالفاظ وهي بعد في الحلق بكهاية المشاعر والعواطف . ذلك عجز في اللغة وتقمير في نشاطها لادائي^{الرافعي} من بيان معانيها بيانا يطابق نوع الخلق ويوافق حالة الوجود، فانا قيل امامك جاء زيد وكنت لا تعرف من زيد من زيد هذا لم تعد ان تتمثل رجلا من الرجال ولكنك اذا عرفتة تمثلت بها من الخلق متميزا بحالة من احوال الوجود، ومن هنا كان التاريخ - الذي هو بيان نفسي محض لا يؤدي الا باللفاظ^{بالالفاظ} - من المعاني الكلية المبهمة التي لا تثبت على قياس واحد من الحقيقة بل لا بد فيها من الزيادة والنقص لان مرجعها الى التصور وهو مجموع ظلال متقلبة على النفس ومن التاريخ ما لا يقتصر الابهام على مدلوله فقط ولكن يتناول الالفاظ الدالة ايضا وذلك لان صورته الذهنية تكون في مجموعها ملققة غير مضبوطة على قياس ما لوف من حياة المتكلم، فاذا اصاب تلك الالفاظ لم يجد لها في ذهنه^{سميا} معينا لانها اطلال رضية واكرما ~~يكون~~ يكون ذلك في العادات والمصطلحات اللغوية التي تتغير بتغير الزمان والاقوال فاذا انقرض اهلها انقرضت معهم وقبت الفاظها في اللغة مبهمة في ذاتها

حتى اذا الحقت بالشرح التاريخي او اللغوي الذي يكشف غورها ويزيل ابهامها دخلت في الحياة الذهنية ولكنها تبقى مع ذلك بالنسبة لانقطاعها من الوجود بقايا اثرية (في اللغة^(١)) وقد يمر الانسان في سلالات من الحسب والبلل او الرغبة لا تستطيع الكلمة فيها ان تعطي معاني هذه ^{السلالات} (فتعجز كل اللغات عن تصوير احساس كامل بحيث يكون اثره على مقدار واحد في نفس صاحبه ونفس غيره، اذ هو حياة لا تلبسها العبارة الا بمقدار ما تنبئ اليها وهو كالروح في جسمها بدل عليها بتركيبه ويكشفها باعماله ثم تبقى مع ذلك خافية الا اذا اخترع لها جسم جديد على تركيب جديد يبنى على اظهارها دون اخفائها^(٢)) واللغات تعجز احيانا بما تحملها فلا تحسن التعبير اذا كانت العاطفة قوية محتاجة وقد نشبت في عاطفة اخرى مثلها، فاذا ضاقت الروح بهذا التي عدت الى لغتها الاولى فارسلت العاطفة لونا في الوجه اذا كانت حياء او خوفا او عدا في الجسم اذا كانت فرحا او حقا ودمعا في العين اذا كانت حزنا او قهرا وضحكا وابتساما ان كانت احبابا وطربا^(٣)) ومن مثل من يحاول ان يحف دموع هذه الجميلة وحسراتها وصفا ناطقا ^{تنفس} به القلب كمثل من يريد ان يخلق من سحر البيان زلزلة ترجف بها الارض حين يبالغ في وصف الزلزلة، وما اللغة الا اداة فكيف وبمكة تستعمل هذه الاداة في صفة قوة تعجز عندها كل وسيلة حتى الشعور الذي ابداع اللغة^(٤) تمسكه باللغة العربية : قد يعتقد القارى ان الرافعي لم يابه للغة نظرا لمعجزها عن اداء ^{المعنى} اداء تام. ولكن الواقع عكس هذا، فهو بيان من الطراز الاول اشتهر ~~بمعالجته~~ بدفعاته ~~موجعة~~ عن اللغة العربية ^{التي} مجرد فيها قلعه على اولئك الذين ارادوا الحط من كرامتها. فكانت غيرة عليها ولعلها اكثر من غيره (ان عليه رسالة يؤيدها الى ادباء الجيل، وان له غاية اخرى هو عليها اقدر وما اجدر، فجعل الهدف الذي يسعى اليه ان ينفع في هذه اللغة روحا من روحه يردّها الى مكانها ويرد عنها، فلا يجترى عليها مجترى، ولا يذل منها نائل ولا يتدربها ساخر، الا ^{بما} انبرى له يبدد اوهامه ويكشف عن دغخيلته، ونظر فيما يكتب الكتاب في الجرائد، وما يتحدث به الناس في المجالس، فرأى عربية ليست من العربية، هي عامية متفاحصة، او عجمة مختعربة، تحاول ان تفرض نفسها لغة على اقلام المتأدبين والستهم، فقر في نفسه ان هذه اللغة لن تعود الى ماضيتها حتى تعود (الجملة القرآنية) الى مكانها كما يكتب الكتاب وينشئ الادباء، وما يستطيع كاتب ان يشحذ قلعه لذاك الا ان ^{يؤيد} له زاده من الادب القديم^(٥) وساله مرة بحقوق صرف لم لا يكتب بلغة سهلة يفهمها الناس كلهم كما يكتب في تاريخ اداب العرب، فرد عليه في الرسالة بهذا الجواب المسهب والذي جاء فيه ما يلي (تسليم لو جريت في انشائي كله مجرى اسلوبي في تاريخ اداب العرب وهفلات اخرى، ولوددت والله ان ارثه عن نفسي، واطرح عنيا لك فيما عالجته من اسلوبي: حديث القمر، والمساكين، ورسائل الاحزان، والسحاب الاحمر، ولكني -

(١) تاريخ اداب العرب الجزء الاول ص ١٥٩

(٢) المجاز القرآني ص ٢٢٢

(٣) ركن طراز ص ١٦١

(٤) كتاب المبكين ص ١٩٥ - حياة الرافعي للبرهان ص ٥٥

اجدني كالمسخر في ذلك لقوة تساورني في اوقاتها وتنب علي كالريح من سكون وركود فلم افكر قط في كتاب من هذه الكتب، ولكن تقع الحادثة فيجي بها الكتاب، ثم ارى من بعد صوته وتعلق المتأدبين به ما لم اكن اقدر بعضه وتنتهي الى اراء مشيخة الادب وطلابه؛ ^{بذلك} فاذا هم لا يعدلون بهذا الاسلوب شيئا في نسخة والفاظه ومعانيه، ثم لا يحيبه الا من قصر عنه وشغل به ^{النزوع} ^{الفرج} فيه وكابر في الاقرار بحجزه، فذهب يلتبس المعازير والمعائب، واخذ في ذلك ماخذ فرعون اذ جأته امرأته فقيرة كانت هي واطفالها يعيشون على درة (عنز) لهم، فماتت، فاقبلت ^{المسكنة} العنزة بها على هذا الذي بدعي الالهية ويقول ان ربكم الاعلى ~~وهو~~ وسألته ان يحببها، فاعتذر بان في السموات امالا كثيرة اكبر من العنزة ...

» ارى المتأدبين يعرفون لهذا الاسلوب ما يعرفه رجال التربية والتعليم من اساليب انشاء التصور وارهاق الذهن وتدقيق الخيال وقوة الطبع اللغوي وصله وادارة الحس عليه، ثم هم يقولون ان موضعه من هذا الكلام الخنث المتهاك الذي ترميه الافلام المريضة في هذا العصر موضع الفحولة التي لا بد منها في الخليفة لايجاد القوة التي لا تكون الا بالفحولة واشعار ^{المحببة} الهية التي لا تكون الا بالقوة. فنحن في زمن كل كاتب فيه قادر على ان يرسل ~~لصاحبه~~ مداده، يطر وحلا لغويا، حتى كل من يعرف القراءة هو كاتب ان صح او افسد، وان اصابها واخطا، وان اخذ اللغة والكتاب من معجماتها ودواوينها ودارسها، او اخذها من الروايات والجرائد والاسواق . ~~يقولون~~ ~~بذلك~~

» يقولون هذا ويضيفون اليه ان الفصاحة العربية كادت تنقطع امثلتها العليا، وانه لم يعد بكل احد في صناعة الكلام وان زمننا هذا حين ينقلب الى مرآة التاريخ فيها، سوري وجهه متورما مخدشا مضدا ملفوفا بالجرائد ... وليس عليه ^{سكة} جمال ولا فيه من الادب منظر قوة، وان اللغة اصبحت اشبه بالبيت المتداعي الذي يريد ان ينقض لا تسمع من اهله ولا جيرانه ولا من السابلة في طريقه الا «هدوا هدوا الى الاساس» (علم الله يا سيدي الشيخ انيما كنت اصبر على مصيبة البلاقة ... لولا ثقتي باجرها ولولا استئناسي الى المعزين فيها، وهم جمهور اهل الادب الا قليلا يخبرني بأسلوب آخر يضحكي احبانا .

» اما هذا الذي يسمونه غسوا وتدقيقا فما انا بصاحبه ولا العامل فيه، ولكنه طور من ^{لفظ} لفظ اطوار الزمن لا بد ان يسبق لهجة التجديد كما جبه سبقها من قبل ^{لفظ} كانوا يصفون به سيدي شعراء العربية قاطبة ابا تمام والمتنبى حتى قالوا في ابي تمام انه افسد الكلام واحاليه عقدة بتعمله وصناعته، وانه اتعب الناس حتى صار استخراج ^{معانيه} بابا مفردا في الادب ينتسب اليه طائفة من العلماء، وان امرابيا سمع قصيدته التي مطلعها: طلل الجميع، فقال ان في هذه القصيدة اشياء افهمها واشياء لا افهمها، فلما

ان يكون قائلها اشعر من جميع الناس واما ان يكون جميع الناس اشعر منه. وهذه شهادته بانه اشعر من جميع الناس ولا ينبغي ان يستحيل ان يصح الشق الآخر. ثم كان جمع من كبار الرواة يعمدون عليه كابن الاعرابي والرياشي وغيرهما، بل قد بلغ من تعصب الرياشي عليه. ولى البحتريان قلت نسخ ديوانهما بالبصرة في زمنه لزهد الناس فيهما. ولى المتنبى شرا من لقي استاذة ومنه الاعلى الذي ^{تقلد} يظنه ويحتذى عليه ومع ذلك انحدر الشعر كله في طريقتهم الى مصرنا هذا .

((ولقد كان المتنبى خمل اسمه وسجله الزمن لو كان يعيب البلاغة عيب سيكون معها فقد قال فيه الامم العسكري لا اعرف احدا كان يتبع ^{العصبة} فياتيهما غير مكثرت الا ليد المتنبى، فانه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ما اقدمه شيئا من ^{ظنا} ولكن ^{ظنا} جميع عيوب الكلام (بهذا الحصر) لم تزد على ان كانت من اقوى الاسباب في تخليد حسنات الرجل .

((ان ارفع منازل البلاغ العربية، كما قالوا، ان يكون في قوة صانع الكلام ان ياتي مرة بالجزل واخرى بالسهل، فيلين اذا شاء، ويشدد اذا اراد. ولا يبلغ هذه المنزلة احد فيحكمها ومعطيا حقها من التمييز الا جعلته الاقدار وسيلة من وسائل حفظ البلاغة ^{بالتلفظ} بمقتضى الزمن وسلم، بل قل بالانحطاط الصريحة المكشوفة؛ يتسلم لغة القرآن وسلمها، فاما اسلوب واحد وطريقة واحدة فهذا في قوة كل كاتب على تفاوت فيه، ولن يكون الرجل حق رجل الا اذا كان له مع الظرف واللين والدمامة حديدا من العضلات وفولازا من العظام، فان لم يكن الا اللين معضا والاسترسال خالما فهذا - اصلحك الله - شيء ما شئت الا ان تقول انه رجولة، فاذا لم يبلغ كل الناس ولا اكثرهم هذه المنزلة فذلك اخرى ان يعد في محاسن من يبلغها لا في معاييه .

((الا لا يحسب احد ان الفصاحة العربية هالكة بحياة طائفة من ^{مرحلي} القلوب كهؤلاء الكتاب الذين يحملون جهدهم في افسادها، فهم مهما كبروا تنتظرهم ^{قبر} في بعددهم. وفي هذه البلاغة العربية خاصة ينبغ الكاتب الواحد في عصر من عصور الضعف، فاذا الف كاتب بتساقط حوله، واذا الكاتب كان سنة من سنة الكون تضرب ضرباتها بالقضاء والقدر))

وقد ذهب في انعكافه على هذا اللغة واستقصاء كوزها التعبيرية الى القول بان العربية تعتبر احكم اللغات نظاما في اوضاع المعاني وسبستها بالفاظ وهي من هذا القبيل اعظمها ^{ثروة} ثروة وابينها من حقيقة التمدن بحيث لا تدانيها لغة اخرى كائنة ما كانت ^(٢) ولو اريد عكس على هذه اللغة فتتبع الفاظها وتدبر وجوه اشتقاقها وتفقد مواقعها في كلام العرب ورتب صيغها ووزانها على ما تقتضيه

(١) الرسالة عدد ٢٥٩ في ٢٠ مايو سنة ١٩٤٠ السنة الثامنة رقم ٨٥٢ تحت عنوان: الحوب الراضي وطريقته في

كتابتة للاستاذ محمور ابو ربه .

(٢) تاريخ آداب العرب رقم ٢٢٩

فراضها بحيث يستقر كل مثال منها في نصابه ويرد الى ^{حيزه} ~~محل~~ لبطه من ذلك بعلم يكشف عن كثير
اسرار الوضع ويمتلك عن استتار الحكمة المستنكة في دقائق هذه اللغة العجيبة^(١) وقال ^{الله} ايضا (العرب
قوم ^{مفكرين} ~~مفكرين~~ كان تمدنهم معنوا ولو ^{مردتهم} ~~مردتهم~~ من مزايا لغتهم والقيت في افواههم اصول
اي لغة من اللغات العالم لخرجوا بها جنسا مغمورا في الاجناس ولكانت حريتهم عينا ونظام
قبائلهم فسادا ولما روا في الجملة الى حال الشعوب التي لا يدور بها الزمان ولكنه ^{يلقى} ~~يلقى~~ عليهم
الاسم كلما دار وقابلهم بالمكتشفين والفاحين والمتخطفين وغيرهم من اجناس المجتمعات
المتعددة. بيد ان الحكمة القت في طبعهم هذا النظام اللغوي وجعلتهم بحيث ينساقون في سبيله
الى الكمال لا تعترضهم عقبة ولا بصرف وجوههم ~~عنه~~ صارف من نظام ^{الطبيعية} ~~الطبيعية~~ المدنية فغضوا
على ذلك واللغة تتخطى بهم درجات الاجتماع واحدة فواحدة حتى انتهت بهم الى الوحدة الجنسية
فتغير مجموعهم وانصب على العالم بقوة جديدة فتية صادفت دولا قديمة بالية فهدمتها تلك الصدفة
التي هدمت التاريخ ^{وتنا} ~~وتنا~~ بعدها بناء جديدا. ولولا اللغة ما انتظم امر العرب لانهم قضوا اجيالا
قبل تمدنهم اللغوي لم ينه لهم شان في ^{انفسهم} ~~انفسهم~~ ولا عدوا في اجتماعهم امر النظام الطبيعي الذي
هو وسيلة حفظ الحياة لنظام الحي لا حفظ الحي لانتظام نظام الحياة كما هو شان التمدن الاجتماعي.
واللغة هي التي جذبتهم الى هدي الاخلاق بالشعر والى هدي المياسة بالخطابة والى هدي الدين
بالقرآن^(٢) وانا اتلح دائما العامل الالهي في كل اطوار هذه اللغة واراها يدبرها على حفظ القرآن
الذي هو معجزتها الكبرى واري من اثره جي تلك الكتب على ذلك الوضع وتسخير تلك العقول
للحراسة من الرواة والعلماء والحفاظ جيلا بعد جيل في الجمع والشرح والتعليق بنخير ابتكار
ولا وضع ولا فلسفة ولا زين عن تلك الحدود المرسومة التي اوتينا الى حكمتها؛ فلوانه كان فيهم ^{مجدرون} ~~مجدرون~~
من طراز اصحابنا من اهل التخليط، ثم ترك لهم هذا الشأن يتولونه كما نرى بالنظر القصير
والرأي المعاند والهي المنحرف والكبرياء المصنة والقول على الهاجس والعلم على التوهم وسجادة
الاستاد حبس والاستاذ بيعس... اذن لضرب بعضهم وجه بعض وجاك كتبهم متدايرة، ومنع التاريخ
وضاعت العربية وقعد ^{شئ} ~~شئ~~ ^{شئ} ~~شئ~~ فلم ^{شئ} ~~شئ~~ ^{شئ} ~~شئ~~ «

ما اتيت بهذه الامثلة العديدة من اقوال الرافي الا لأرى شغفه وتعلقه بهذه اللغة اذ ^{ادوات} ~~ادوات~~
وتشديده على تقديمها بالرغم مما قاله في جيز الكلمة عن اداة المعاني الباطنية. فهو حارس من
حراسها النشيطين المحافظين على كرامتها واحترامها، وله نظريات بعيدة المدى في تشريع

(١) تاريخ آداب العرب ووجه ١٧٩

(٢) " " " " ٢١٧

(٣) وجه اقليم الجزيرة ووجه ٢١٠

تضييق السنن التي يجب على الاديب ان يسير بموجبها ليتوصل الى التزويج بين الفكرة واللفظة .
 ومثل ذلك يكون الرافي قد حاول ان يقيم التناوب بينهما قدر المستطاع (لان الالفاظ هي التي
 تسوس المعاني وتنزلها تلك في منازلها وتضعها على اقدارها لا من حيث ان اللفظ هو الذي يوجب ^{بوجود}
 المعنى ، فذلك ظاهر لا استحالة ، ولكن على انه هو الذي يخصص المعنى اذا كان جنسا وهو
 الذي يوجه بؤكد مبالغة في تلوين صورته النفسية حتى تنطق اجزائه وحتى يقيم كل جزء منها في
 البیان اللغوي مقام الكل الذي هو مادة الشعور الطبيعي . ولما كانت اللغة عملا نفسيا ^{مستطاعا} ^{مفصلا}
 كان وجود هذا النوع فيها من اخص الدلائل على تعدنها لان النظم الذي يمين درجات المعاني
 انما يفصل اجزاء الموجودات على درجات شعور النفس بذوات هذه الاجزاء او بصفاتهما وهذا
 لا يستقيم الا اذا كان في اللغة حياة باطنة تشبه ما في الانسان الراقي ^{ما} يسمى بالكمال او الحياة
 الروحية العالية حتى تتكافأ النفس واللغة في تصور اجزاء المعاني وتصويرها (

سأحاول الآن ان اتتبع قدر الاستطاعة نظريات الرافي التشريعية في ميدان اللغة .
 فقد اتى بفكر اقول عنها بانه بز فيها لعظم ^{البلاغ} ^{البيان} ^{الغريبين} ^{ضمنا} ضمتها كتابه (اعجاز القرآن)
 (وتاريخ ادب العرب) .

اللغة بين التوقيفية والمواضعية : ما لا شك فيه ان الانسان لم يلم اللغة كما هي الان في
 حالتها الحاضرة ، حسب ظن القدماء الذين قالوا بان ادم قد تسلمها ^{من} الله مباشرة ^(١) فهو
 قول من باب التقوى التاريخية لا اكرر لان الانسان خلق مستعدا ليصير بعد ذلك عالما مجتمعا
 وليجري في كماله ^{المستقر} له على سنة الله التي لم تتبدل ولن تجد لها تبديلا . وهذه السنة
 هي ان المتغير لا يوجد كاملا بل لا بد له من نشأة ^{بمرور} في ادوارها حتى يتحقق معنى ^(٢) ^{المتغير}
 فاللغة في معظمها (درس تقليدي طويل مداره على التواطي ^(٣) والاعلاج) ^(٤) غير ان التطرف بمثل هذا
 القول يوقعنا في مشاكل عدة لا يمكن للانسان حلها ما لم يتراجع عن بعض تمسكه الشديد بهذه
 النظرية . فاذا كانت المواضع شيئا قد ثبت في امره العلم والتاريخ ، فذلك لا يعني ان اللغة مجرد
 التقليد واصطلاح ^{مركب} ان يكون في الانسان استعداد مليقي ^(٥) ليقبل هذا التطور . نعم لم يلم
 المرء اللغة كما هي اليوم ولكنه ^(٦) فطرته اصول الحياة ولبيست اللغة باكثر من ان تكون بعض
 ادواتها التي تعين عليها (

(١) تاريخ آداب العرب ، ص ٢٢٨

(٢) راجع مجموع الوثائق لتقني في الجزر ، ص ١٠ ، الطبعة الثانية ، ١٩١٢ م ، ١٩٢٢ هـ .

(٣) تاريخ آداب العرب ، ص ٤٨

(٤) تاريخ آداب العرب ، ص ٤٧

(٥) تاريخ آداب العرب ، ص ٤٩

هذا قول الرافعي وقد اثبتته في مواضع عدة . ورغم تسليسه بالمبدأ القاطن بالمواضعة فقد ^{شرح} صرح في موقف كبره بان اللغة عمل نفسي محقق ينبت من الداخل لا عمل يخرج عن المصادقة ^{والله اعلم} والاعتقاد

تتبع في كتابه (اجاز القرآن) و (تاريخ اداب العرب) هذه الاصول النفسية ونفذ منها الى الصنفي الواجب على كل ادب ان يسير عليها كي يستقيم كلامه ويقع في نفس القارئ . موقعا صائبا ^{لنفس} مديدا لان ^{واللفظ} اللفظ هي المعاني المتحركة ، لذلك كان من الواجب احداث التساوي بين الفكرة واللفظة ليصل المعنى الى اذهان الآخرين بدقة واحكام . فاذا كان الاحساس هو اللغة النفسية الكاملة ، كانت اللغة هي الاحساس ^{واللفظ} التوكل واشكالا ، وقلم سر الاجاز عند الكاتب على ان يلائم بين خصائص النفس وخصائص الكلام وفيما يلي رسم لخصائص اللغة التي تعكس النفس بصدق وامان . قال الرافعي (الكلام بالطبع يتركب من ثلاثة حروف هي من الاحوات ، وكلمات هي من الحروف ، وجمل هي من الكلام)^(١١)

الحروف واصواتها . الموسيقى الصوتية منطق الحروف ، لان الحرف صوت والصوت موسيقى . لذا كانت التوحيات الموسيقية في الاحرف هي عينها التوحيات الموسيقية في النفس ، وترتيب الحروف بعضها مع بعض ترتيبا عذبا يستسيغه السمع يقوم على الموسقة بين الحروف وفقا لما تتطلبه الموسيقى النفسانية ، لان الاحرف ترتيبات موسيقية . لذلك لا بد لاصوات الحروف من نوع في التركيب وجهة في التاليف حتى يمازج بعضها ^{بعضها} بعضها ، فتتداخل خواصها وتجتمع صفاتها ويكون منها اللحن الموسيقي ، وهو لا يكون الا من الترتيب الصوتي الذي يثير بعضه بعضها على نسب معلومة ترجع الى درجات الصوت ^{وتخرجها} وتخرجها ^{وتخرجها} وابعادها ^(١٢) التي ^{وتخرجها} الذين يدركون اسرار الموسيقى وفلسفتها النفسية لا يرون في الفن العربي بجملة شبيهاً يعدل هذا التناسب الذي هو طبيعي في كلمات القرآن ^(١٣) ... لترتيب حروفه باعتبار من اصواتها ومخرجها ونسبة بعض ذلك لبعضه ^{مناسبة} طبيعية في الهمس والجهر والشد والرخاوة والتفخيم والترقيق والتفشي والتكرار ^(١٤) فلا حروف اذا تتالف تأليفا موسيقيا في نبراتها الصوتية كي تستانس الصوت بها . ونحن نعجز عن تحسس لغة من اللغات اذا لم نعلم قليلا بموسيقى حروفها فاذا جردت الكلمات من المعاني تصبح نبرات صوتية والصوت هو انفعال النفس موقعا ^{بموسيقى} تسمعه الاذن . لذلك كانت الموسيقى من اكثر الفنون تأثيرا على السامع ، لان (بادة الصوت هي مظهر الانفعال ^{للفن} النفسي ، وان هذا الانفعال بطبيعته انما هو سبب في تنوع الصوت بما يخرج منه ، فمد او قلة او شدة وما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس اصولها ، ثم هو يجعل الصوت الى الاجاز والاجتماع والاطناب والبسط بمقدار ما يمكنه ان يعكس

(١١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢١

(١٢) اجاز القرآن ج ١ ص ٢٢٤

(١٣) " " " " ص ٢٢٤

(١٤) " " " " ص ٢٢٥

والله اعلم

من الحدة والارتفاع ~~والصوت~~ ^{والله اعلم} ومد المدى ونحوها، ما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى ^(١) . . . وتتابع
الاصوات على ^{المتتالية} النسب المقيمة بين مخارج الاحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس
الانسان فهو ^{من} سمعها لم يعرفه عنها صارف من اختلاف العقل ^{من} او اختلاف اللسان؛ ولى هذا
وحده يوئل الاثر الوارد في ان الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا؛ لانه يجنب هذا الكمال اللغوي ما
بعد نقصا منه اذا لم تجتمع اسباب الالط في اصوات الحروف ومخارجها، وانما التمام الجامع لهذه
الاسباب صفاء الصوت ^{وتنوع} وطيبته واستقامته ووزنه على كل حرف .

وما هذه القواصل التي تنتهي بها آيات القرآن الا صور تامة للابعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى،
وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا، يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس
وراءه في العجب مذهب؛ وتراها ^{الكل} اكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في
الموسيقى نفسها؛ او بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرار؛ فان لم تنته بواحدة من هذه، كان ^{الكل} انتهت
بسكون ^{من} الحروف الاخرى، كان ذلك ^{سبب} لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق
بما هو اشبه ^{من} واليقي بموضعه؛ ولى ان ذلك لم يكن اكثر ما انت واجده الا في الجمل ^{الكل} القصار،
ولا يكون الا بحرف قوي يكتسب القلقة او الصغير او نحوهما ما هو ^{من} اخرى من النظم الموسيقى .
وهذه هي طريقة الاستهوا الصوتي في اللغة، وانرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن ^{الكل}
الكريم ان تكون صوت اعجازه ^{من} الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه؛ ثم لا يجد من النفوس
على اي حال الا الاقرار والاستجابة؛ ولو نزل القرآن ^{من} كان ضربا من الكلام البليغ الذي يطعم فيه او في
اكثره؛ ولما وجد فيه اثر يتعدى اهل هذه اللغة العربية الى اهل اللغات الاخرى؛ ولكنه انفرد بهذا
الوجه المعجز، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها او اُبدل بغيره او أُحجم معه حرف اخر،
لكان ذلك خلا بينا، او ضعفا ظاهرا فينشق الوزن وجرس النغمة، وفي حس السمع وذوق اللسان، وفي
انسجام العبارة ومراعاة المخيخ وتساند الحروف وانضاض بعضها الى بعض؛ ولرايت لذلك ^{من} في السمع،
كالذي تنكره من كل ^{من} لم تقع اجزائه على ترتيبها ^{من} ولم تتفق على طبقاتها، وخرج بعضها طولا
ومعضها عرضا، وذهب ما بقي منها الى جهات متناكرة ^(٢)

هذا ^{من} بعض جواهر الرافعي به عن موسيقى الاحرف، وهو على شيء كبير من الحق ^{من} هذه الاقوال .
اذ اللغة مجموعة الفاظ تتألف من حروف، ولحروف اصوات في حد ذاتها، والاصوات موسيقية ناطقة لموسيقى
النفس العاشية. فاذا لم يستطع الكاتب ان يلائم بين خصائص موسيقى النفس وخصائص موسيقى الاحرف

(١) مجاز القرآن رحمه ٢٢٦

(٢) مجاز القرآن رحمه ٢٢٧

حصل الطلاق بين المعنى واللفظة وانحرفت العبارة عن مصدرها الذي هو النفس وقصر الانشاء عن ان يعطي صورة صادقة عما في داخل الانسان، لذلك تبرز بعض الحروف مستهجنة عندما تلتحق بغيرها، لان الوضع الايقاعي لم تراعى فيه البلاغة الموسيقية.

الكلمات وحروفها . الحروف رشحات موسيقية قصيرة المدى لا تعكس لنا من النفس غير موجات باطنية قصيرة المدى ايضا، فهي بدايات ادائية تقف عند حد التعبير عن بعض المشاعر الاولية. ولكن الانسان لا يكفي في هذه التبررات الموسيقية القصيرة. فاذا احس بامواج وجدانية اطول في انبساطها واعتدالها وكان قد عبر الى منطقة المعنى عند الى تاليف الحروف تاليفا منسجما ليخلق الكلمة // والكلمة انما هي صوت النفس لانها تلبس قطعة من المعنى فتختص به على وجه من المناسبة قد لحظته النفس فيها من اصل الوضع حين فصلت الكلمة على هذا الترتيب // وهنا يشير الراقعي اشارة خفيفة الى الرابطة الواجب احداثها بين المعنى والكلمة التي تسمى "اليه" فتنة توازن بينهما واتساق وتناسب، لذلك لا يجوز لنا ان نؤلف الحروف او ~~نؤلف~~ نقطع الكلمات كلفنا شيتا، بل هناك اصول نفسية وسبادي

موسيقية وذوقية ترسمها السليقة اللغوية في الانسان لوضع الكلمة. ومن هنا كانت بعض الالفاظ تتفشى بسوء وتداول والبعض الاخر يموت ولا يحكى. فصوت النفس هو الذي يفرض صوت الكلمة، وصوت الكلمة هو صوت الموسيقى الذي يكون من تاليف النغم بالحروف وسخارجها وحركاتها وموقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقتة متسارعة وعلى تضاد متماو بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى في سبيله الى النفس (٢٠٠)

كثيرون هم الذين لا يابتهون للاداء التعبيري ظنا منهم ان الادب فكر لا غير، فلا يستمعون بلحت الالفاظ وانتقاهما كي تعكس عكسا محكما ما في النفس من الموسيقى والافكار. ذلك لانهم لا يفقهون منزلة

اللغة واتصالها الوثيق بحركات النفس والشعور واندماجها الحميم بكل خفقة من خفقات القلب الفؤاد ورجفات الروح. ومن هنا ايضا كان عمل بعض الكتبة في نقل كلماتهم وفربلتها امثال اناطول فرانس

وجوستاف فلوبر وول فاليري في الادب الافرنسي وامثال الراقعي في ادبنا الحديث. ولا اجد مبررا

لما لا يتصل على الاطار اللغوي في تكلم لان الكلمة خطوة للمعنى في سبيله الى النفس. فاذا احكم سبكها ملدت على ابراق المعنى الاخرين لانها اداة تفاهمية واجبية الوجود يحاول الكاتب نحتها كلما ارتفع

في طباق الفكر العليا وتوغل في اقصى الابعاد الذهنية // هي الشكل المحسوس للفكر والعاطفة، اذا كانت اللغة في الاصل مظهرا للاتجاه الكامن في النفس فانها قد اصبحت بناموس الثورث مؤثرة على الاتجاه

نفسه بقوة التفاعل المشترك بين العلة ومعلولها. ولقد يخيل للبعض ان الفكرة حر طليق في دوائر يتسنى

(١١) اعجاز القرآن رحمه

(٢) اعجاز القرآن رحمه

له بلوغ اوج الافصاح بآية لغة يستخدمها؛ على ان القائلين بهذا الرأي يجهلون تاثير التعبير على الفكر نفسه. ان البيان المستنتج بالاتجاه الداخلي امتزاجا لم يسع علماء احوال النفس انكاره. فهو يدوي ابدا في اذان الاحياء بصوتين صوت الام فوق المهد وهاتف الجدود من القبور^(١١) ان الفكرة لا تنفصل عن اللغة بالسهولة التي نطمنها. وهي دليل على رقي ادراكي عند الانسان لانها تستلزم قوى عقلية ثلاث، تستلزم قوة ^{المخيلة} التركيب وقوة ادراك العلائق بين الاطراف، وذلك تكون مرتبطة ارتباطا حميما بنواميس العقل ايضا. بها يخرج الانسان من سديم افكاره الغامض الى وهي نفسه وبها واضحا، فتكون الالفاظ عينها احبانا واسطة لا يفاظ المخيلة والتفكر بالاشياء وربط التصورات بعضها ببعض. لذا كان التدريب اللغوي مرآة نفسية لازمة لتربية الشخصية وصلها في الداخل، واللغة مرآة النفس^(١٢) فلا اذا انحطت وقلت مفرداتها انحطت الشخصية واذا ارتقت وكثرت مفرداتها ارتقت الشخصية^(١٣).

الجميل وكلماتها. كنه الفصاحة ^{حسن} حسن انتظام الاصوات بين الحروف وحسن انتظام الحروف في الكلمات، ومن ثم حسن انتظام الكلمات في الجمل واتساقها مع المعاني التي سكبت فيها. وقد تكلمنا بعض الشيء عن موسيقى الحروف وكيف ان خصائصها الصوتية هي خصائص موسيقية النفس، وراينا ان الكلمات مجبوة لاصوات الحروف، بها تخطو النفس خطوة ابعد في التعبير عن موجة اطول، فتعبر الى منطقة المعنى. فلم يبقى علينا في هذا التدرج الصاعد الا ان نقول كلمة في الجملة، وما الجملة الا مظهر الكلام وهي الصورة النفسية ^{للتأليف} للتأليف الطبيعي ان يحيل بها الانسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة الى معنى صورها في نفسه او تعفها حتى ترى النفس هذه المادة المصورة وتحسها على حين قد لا يراها المتكلم الذي اهدفها لكلامه غرضا ولكنه بالكلام وكأنه يراها^(١٤) وهنا تصل النفس الى اوج الصناعة التركيبية ان تكون الادوات الجزئية قد استكملت كالحروف والكلمات فتؤلف بها تلك القطعة الادائية التي اطلق عليها اسم الجملة. والجملة تعبير عن ذهنيات النفس وخوالج القلب اطول مدى من الحروف والكلمات. فهي صورة طبيعية لتأليف نفسي والمعاني ليست جامدة ولكنها تحرك دائم وتلاحق مستمر، حينما في ارتفاع وحينما في هبوط، تارة تنفج انبساطا وطورا تنكش انقباضا كامولج البحر بين دفع وجذب، لذا ترى الجملة عندنا ^{بحكم} تنزيل الا الالفاظها ويستندق رصفها عكس الى الخارج هذا التمعج في الباطن. فترى الكلام تارة يعلو في قنطرة وطورا ينحدر في هبوط، وترى الانفراج بين الكلمات سابع يكون بين المعاني، وترى اللولبية في الالفاظ حين تكون بين المعاني. وتصاراه ان معاني الجملة هي معاني النفس لمخرج اصوتا واشكالا. وتتم بلاقة الكلام على الا تنبو كلمة عن كلمة بحيث يشعر القارئ بالترابط بين الجمل كما

(١١) رسالة المنبر الى اشراف العرب تأليف فيليكس فارس رجمه ٧٢

(١٢) راجع محاضراتي (الواقع اللغوي وتأثيره على لغز دلالة) العروة الوثقى ١١ العدد الاول آذار ١٩٤٦ رجمه ٢٥

(١٣) اعجاز القرآن رجمه ٢٤٩

يشعر بالتأخي بين الكلمات والتناغم بين الحروف، فتتألف الالفاظ وتتجاذب في الجملة بانتلاف يشعرك انك امام وحدة تركيبية لا تتفكك. هذا ما اعطاه الرافعي مخرج التركيب في كلامه عن القرآن حين قال ((فاذا انت حرفت الفاظه من مواضعها، عن مواضعها او اخرجتها من اماكنها وارزقتها عن روابطها، حصلت معك الفاظا كغيرها ما يدور في الالسنه ويجرى في الاستعمال ~~وذلك~~ ورايتها - وهي في الحالين لغة واحدة - كانا خرجت من لغة الى لغة لبعد ما كانت فيه ما صاروا اليه، بيد انك اذا تعرفت الفاظ اللغة على هذا الوجه في كلام عربي غير القرآن، اصبحت امرا بالخلاف، ورايت لكل لفظة روحا في تركيبها من الكلام، فاذا افردتها وجدت قربة ما كانت لانها هي نفسها التي كانت من روح التركيب، ولم يكن لهذا التركيب في جملة ^{الجملة} خاصة بالنسق والنظم، فيعطى كل لفظة معنى في الجملة، كما اعطتها اللغة معنى في الافراد، حتى اذا ابتنتها وبيرتها من هذه ^{الطريقة} الضعفت ونقصت وتبينت فيها من الوعشة والقلقة شبيه ^{بشيء} الذي يعرض للغريب اذا نزع من موطنه ^{بما} عن اهله، وكان كل ذلك فيها طبيعيا لان حقيقة التركيب انما هي صفة الوحي في هذا الكلام .

((وهذه الروح التي ياتى بها (روح التركيب) لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن وبها انفج نظم وخج ما يطيقه الناس ولولاها لم يكن ^{يحيى} هو كانا وضع جملة واحدة بعد ليس بين اجزاها تفاوت وتباين، ان توه ينظر في التركيب الى نظم الكلمة وتاليفها، ثم الى تاليف هذا النظم، فمن ^{هنا} هنا تعلق بحضه على بعض، وخج في معنى تلك الروح صفة واحدة هي صفة اجزائه في جملة التركيب كما عرفت، وان كان فيها وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من اغراض الكلام وسناني العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب؛ كالقصص والمواظ والحكم والتعلم ^{وهو} الامثال، الى نحوها ما يدور عليه . .))

يذكرنا كلام الرافعي بما ذكره عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز في علم البيان قال ((ان الالفاظ اذا كانت اوجه للمعاني فانها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فاذا وجب المعنى ان يكون اولا في النفس وجب للفظ الدال عليه ان يكون مثله اولا في النطق، فاما ان تتصور الالفاظ ان تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم ^{ولذلك} والترتيب وان يكون الفكر في النظم الذي يتواصله البلغاء فكرا في نظم الالفاظ او ان تحتاج بعد ترتيب المعاني الى فكر تستأنفه لان نجى بالالفاظ على نفسها فباطل من الظن ووهم تخيل الى من لا يوفي النظر ^(٢) حقه)) هذا مرض مقتضب للنظريات الرافعية عن ^{موجته} موسقة الاحرف ومعاني الكلمات ^{وهو} التركيب في الجملة نقول على ضمير ^{نفسها} بان اللغة مرآة نستشف من خلالها بواطن النفس لانها افكارنا قذفت بتحرك الى الخارج اصواتا واشكالا والكاتب القدير ينفرد بحقيقة خالدة عندما يحسن انتقاء الالفاظ ويلائم فيها بينها، وهو عمل مض بالواقع تننرى الروح فيه الاما واوجعا ليصل الاديب الى النقاط الدقائق النفسية واللوامع القلبية بكلمات

(١) اعجاز روح ٢٥٨
(٢) عبد القاهر الجرجاني في دلائل الاعجاز وجه ٢٤

تعكس دواول الداخل على انبساط الفضاء، وهذا التساوي بين اللغة والنفس هما اسهل الرافعي بالطريقة النفسية في الطريقة اللسانية . وقد كان يحيره اهتماما كبيرا في حياته الادبية حتى قال عنه الاستاذ العريان (وكانت له عناية واحتفال بموسيقى القول حتى ليقف عند بعض الجمل من انشائه برهة طويلة يحرك بها لسانه حتى يبلغ بها سمعه الباطن ثم لا يجد لها موقعا من نفسه فيردها وما بها من عيب ليدل بها جملة ~~تكون~~ اكثر رنينا وموسيقى، وكان له ذوق فني خاص في اختيار كلماته بحسب القاري في جملة ما يقرأ من منشأته، وكنت اجد الاساس به في نفسه عند كل كلمة وهو يلقي علي هذا الذوق الفني الذي اختص به هو الذي هياه الى ان يفهم القرآن ويحرف مر لعجازه في كآبة وكل كلمة من آية وكل حرف من كلمة، وحسب القاري ان يعود الى تفسير الرافعي لقوله تعالى «ورأوته التي هو في بهته من نفسه»... ليرى نمودجا من هذا الذوق الفني العجيب في فهم اللفظ ودلالة المعنى بقباله وجه اخر من هذا الذوق في اختيار الفاظه عند الانشاء...»

البيان

(٢) البيان صور نفسية في الطبيعة وصور طبيعية في النفس... يشق على الكلفة ان ترسم بموسيقى حروفها فقط عروق الافكار وخطوط الذهبيات والارضية الروح في ابعادها، فيلجأ الاديب والحالة هذه الى تصوير الغيب بالمنظور وسبك في قوالب حسنة مأخوذة من الطبيعة تقربه اليها وتجعله في متناول يدنا. وليس ذلك بالمستغرب فلانسان مظهر على الحيات يانس بها لانها تعبته على رؤية الغيب في حيز فضائي. وهكذا تُعكس المستلهمات البعيدة على سطح الطبيعة فيقرب المدى بيننا وبينها ويدرك المنبع من الوجدانيات وتطمئن النفس الى تلك المعاني ~~التي~~ ^{التي} ذلك من التجسد. فهو استحالة السماء ارضا والفكرة صورة، هو ادنا الاقصى، وسبب هذا كون المرء لا يستطيع التحديق ~~في~~ ^{في} العارية وتقصيره ^{في} ولهج هذه الارجا المتراصة والاجواء الفسحة اذ تغشاء الضووبة ويقع في دوار شديد فيضل ~~من~~ ^{من} وطأة الا محدود. ولكنه حين يقف امام البحر ويلقي بنظره على افاق هذا الهم المديد او ينتصب في قلب الصحراء ويرى عظم دائرتها تتجسم له فكرة الانهاية مرئية فيرتاح بها من عنا الخطب فيها لا لون له ولا شكل. وما الاستعارات والمجازات والكتابات الا حيل بيانية تتجسم المعاني بواسطتها، فهي بمثابة عدسة المجهر التي تقرب ~~من~~ ^{من} الثاني وتظهر المحجوب، لذلك تضعنا الصورة وجها الى وجه امام الغيبات الذهبية شرط ان يكون رائدها الايحاء لا الاصل

والمجاز في حد نفسه هو ذاك التناسب الواقع ~~في~~ باحكام بين الصورة الطبيعية والمعنى المشار اليه ، هو ~~الامرئية~~ الغيب في مرتبة الطبيعة . البيان هو تزويج المعاني بما يشبهها في حركة الطبيعة وصورها . وهو لا يقف فقط عند حد تصوير النفس ~~بالطبيعة~~ بل الاستعانة بالنفس ايضا ~~في~~ لتصوير الطبيعة وتحليلها مجازيا ، لان الاجسام بحاجة الى معاني الروح لتكون جميلة جذابة ، بما نضع نحن فيها من خوالج نفسية تجعلها ذات حياة وارادة ، تلك هي مثالية الادب التي تكلمنا عنها سابقا ، فاذا كان بسطة الذهنيات في الفضاء لزم ما يلزم لجلاء غوامض النفس كان ايضاح الطبيعة بحاجة الى ~~غموض~~ غموض الروح لترجع ~~الى~~ ^{المعنوية} ~~الاشياء~~ من نفاة معلومها الى شيء من المجهول المستحب . ومن هنا قول الراجزي في تحديده الشعر . . . (ليست هذه المعاني الشعرية الا ظلال لما في الطبيعة وان مثلتها القلوب حقائق منفردة فان قلب الشاعر بينها وبين الطبيعة كالمראה تظهر اشباحا قائمة وهي على الحقيقة غير اشباح . قائمة وهي على الحقيقة غير اشباح ، وتمثل لك الارواح في الاجسام وليس على اخر افرادها من الاجسام ولا من الارواح . فترى الشاعر ينقل الورد الى روضة بيانه فتثبت فيها خذا ويغرس الغصن الناعم فيستقيم هناك قدا . ويأتيك بالحظة العين فيطبع منها الحسام . ويتناول ظلاله الاهداب فيبرش منها الى الافئدة السهام . او ^{تعتقد} ~~يصدق~~ ظلالها شركا ينصيه لسوانح المعنى في اودية الغرام . وهو

في ذلك

~~الملك~~ ^{يتميز} النفوس اجنحة ترفعها الى جو الخلود فتجمع اليها نظرة العالم في نظره وتطلعا لها فطرة المادة كانا تقرأها من الشعر في خطره . وهذا المعنى في الشعراء اكبر من ان يكون قوة ارضية فلا بد ان يكون الشاعر انسانا فوق الانسان . واعتبر ذلك باخلاقه فانك لا تجده الا اقرب الى الملك او اقرب الى الشيطان . وعلى احدى الجهتين من هذا التاويل يقول ملحدوا الفلاسفة ان الديكانات من مختلفات الشعراء . وكانا الشعر نوع من علم سياسة النفس فترى الشاعر يدوار الامور ويربها طلبا لما تاهها والتعاسا لما يسيئها . ثم ^{النفس} ~~يخرج~~ ^{الغرض} ~~الغرض~~ الذي يلقه اليها عن موضع الاطمئنان الطبيعي به الى جهة من الشك الخيالي فيه ثم يردا الى موضعها الاول فتكون في حركتها هذه قد اضطربت بمقدار ما افصح لها وهذا الاضطراب هو الذي يكون منه الشعور . . .

((والكلام لا يرسل الا تمثيلا للاغراض التي تراء به ولكن هذا التمثيل على اطلاقه ليس من صنعة الشعر خاصة بل يجيء الشعر وسيلة لتمثيل روح الغرض ذاته وافاضة الاحساس عليها حتى تتفزز فتتمثل بالافس فتانس بها للشبه الروحي بينهما ~~44~~))

(وات لا تجد للفظ "الحب" معنى كبيرا في ذاتها ولكن الشعر الشاعر متى وضع لها صفة وهبة فمثل
 المحب والحبوب . وقد لها طرفين من الخزل والنصب . وتناول اصوات هذه المعاني فاحتها على
 نعمات الانين . وجعل لها متنفسا بين تاوهات الحزن . واستوفى هذه الصفة على المحل ^{تمثيل} التلخيص الشعري
 واحكمها على مقتضى صنعه فحيثما يفتح لك باب "الحب" فترى عالما بين الارض وسما . تلك افئدة
 تثبت بالاشواق وهذه اعين تمطر بالبكا . ثم يثقل بك الخيال في ملكة الجمال امام ذلك العرش الذي
 قامت اركانه على القلوب واستوى عليه دلال الحب من يسمونه المحبوب . فاخذ بقسم الخطوط ويصرف
 الغيوب بين ارواح مشرقة ينساح ضوءها وارواح لجهت تخرج للغروب . على اني مهما بلغ لك هذا القلم
 في التصوير فلا اراه استمد من بيان "الحب" وهاته اكثر من تلك النقطة الماقطة من بائه .
) وليس يحتاج ذلك التمثيل الذي عرفت في تمام تصويره الى الوزن لولا ان الوزن الحان تساعد
 المعنى الشعري في تهبة النشاط للنفس حتى ليخيل اليك اذا انشدت ان آخر ينشد معك .
 فالوزن بهذا الاعتبار كانه لون جديد في التصوير الشعري بل هو للنفس عند صورة الشعر اشبه شي بالنور
 الذي يتالق فيه ماء الصورة ويتلألأ رونقا فهو يكشف عن تمام حسناتها . كما يكشف الضوء من الغمامة عن صف
 مزنها .

(ولهذا تجد من يصابي الشعر فلا يقفهم انشاده ولا يستوفي منه مواقع النبر والارسال والترتيب كمن يكسر
 فلا يقم وزنه ولا يتم حسنه . وانك لست تسمع من كليهما انكر صوت حتى لو بلغت فيك رقة الطبع ^{للمفضل} لفضلت
 على كل كلمته منه كلمة تشتم بها لتجد فيها على الاقل لذة الحلم .

(ومثل اعرفت من هذا ما تعرفه من الشعر الذي انهدم فيه ركن التخييل فبقي طلالا لا هو بناء ولا هو
 فنا . فان الاصل في الشعر هذا التخييل ثم تأتي صفة التاليف التي تجدد مادته في انتباه من يلقى كنه
 اليه وما يقطع بالشاعر الا وقد ضعف معه نظم المناسبات وهو صفة التاليف التي قوامها التخييل حتى انه
~~لن يستطيع~~ يستطيع ان يجمع العالم كله في قصيدة واحدة اذا هو استطاع ان يجد المناسبات التي ~~تكون~~
 تؤلف بين مفرداته المتناثرة .

(وسرى بين منتحلي الشعر من لا يجد في طبعه قوة التخييل فكما نظم اخلى ولذلك يعمد الى الالفاظ
 التي هي مظنة الشعر كالتعبير عن العواطف مثلا فلا يزول بها حتى يقع منها على الحيلة في
 اخراجها مخرج الشعر على ما يقوم فهو بذلك ينبه النفس الى ما الفت ان يكون فيه سرورها من تلك
 الالفاظ كالحب والوجد والسعادة والمجد . ولكنه يطردها للشعر من غير ان يحكم المناسبات التي تفرض

عليها الاحساس وتمدها منه بالحياة فلا تبلغ النفس ان تنبسط لكلامه انبساط الحي حتى تجدد جمود
المبت فان الشاعر بالفاظه تلك بين حواشي معانيها التي ترف عليها النفوس كأنما ^{هم} يطوف بالجنابة
في الاعراس ويوجد لفساد طبعه وجها من الشبه بين ما يرف الى المقاصير وبين ما يحمل الى الارماس .
وليس هذا الشعر في الالفاظ من حيث ترسل ولكنه في ^{المؤثرات} ~~المؤثرات~~ التي تستخدم فيها فان الطفل اول ما
يقول (بابا) يستطير بها ابوه فرحا والطفل لم ^{يرك} على ان تلفظ باحرف طبيعية لم يبعثه عليها فكر
ولا هو تصور لها معنى ^{وكن} اباه كلما تعمل ان يحكيها تنفس قلبه لتلك المحاكاة بالاعتبار الذي
باتيها من العلة النفسية بين الاب وابنه . وكذلك ^{الصور} ~~الصور~~ فيما يحاكيه صفات الطبيعة وتشبيهاتها
فانه يجي بها فوق ما هي في ذاتها بما يمت اليها من اسباب العلة بينها وبين النفوس ، فكان ^{الصور} ~~الصور~~
والنفس يتساقطان الحديث فينصت حتى يعي كلامه وتنصت حتى تعي كلامه .

ولذلك ربما اهتزت النفس للشعر الذي لا يرى فيه الناقد غير لفظ منسجم ومعنى مبذول بل ربما اهتزت
من ذلك ايضا لما عصى النقاد ان يجد فيه المنمز ويصيب المقالة ولكن يحضر الفاضل تتناول من العلني
ما يذكر النفس باحوال ربما كانت منسوبة في جانب التصور او كان للنفس فيها شيء من الهوى فتعجبها الذكري
^{وتحذر} على تلك الالفاظ المنسجمة ^{فترى} ~~فترى~~ معناها البسيط من تصورهما بمثل ما يحيط من الزمان الافق
بالشمس اذا غربت فان نورها الخافت لا يكاد يلقى ^{على} ~~على~~ تلك الالوان حتى تتناسب جميعها
فيكون قرص الشمس كأنه لون منها في صفحة السماء وذلك يخرج من صورة الجسم المضي الى هيئة
الضياء ^{الزواج} ~~الزواج~~ من تلك ^{الزواج} ~~الزواج~~ في نظر المتأمل على ما بها من السقم احسن صفات الجمال في الحسن
والرافعي عنه كان بارعا في الاساليب البيانية ^{له} ~~له~~ في انشاء (الكناية) ^{بمعنى} ~~بمعنى~~ احساسا دقيقا وحسب لوان
واحدا من اهل البيان اراد ان يتبع ما اجد الرافعي على العربية من اساليب القول لا يخرج قاموسا من
التعبير ^{المعجم} ~~المعجم الجميل بحجز عن ان يجد مثله لكاتب من كتاب العربية الاولين ، ان ^{كان} ~~كان~~ كان مذهب
الرافعي في الكتابة ^{هو} ~~هو~~ ان يعطي العربية اكبر قسط من المعاني ^{ويعطي} ~~ويعطي~~ نبرة جديدة الى اللغة وقد بلغ ما اراد ^(٢)~~

(١) انظر مقدمة ديوان النظرات لرافعي . الجزء الاول

(٢) معيد العربية . حياة الراجعي . ص ١٨٥

الرافعي الاديب

قال فيلوكس فارس / ظهر هذا المبقرى بشخصيته الفذة في حقبة من الزمن كان الاديب فيها مقتلدا لدرستين :
احدهما مدرسة الادب العربي تحايل انماض اللغة من كبوتها وقد طالت قرونا غنمك كل همها في
تعميق العبارات وتصحيح المفردات والتلصق من الاسلوب السقيم الذي طغت فيه على البيان السجاع
التحذلقين واجتاحتها الالفاظ العامية. والاخرى مدرسة الادب الدخيل تغترف من بمعين الغرب
اوشالا ترفقها بمانا مقلدا لا يمت الى العربية الفصحى بسبب وليس فيه من الالفاظ المحجة ومثانة
الاسلوب ما يفرى على اقتناص روائع التفكير من بيان الاجانب . كان الرافعي في تلك الفترة يخطو
خطواته الاولى بعيدا عن المدرسة الثانية متصلا بالمدرسة الاولى بجامع الاختيار الالفاظ وتنميق
الاسلوب. غير انه ند من هذه المدرسة بارسال نظراته الى افوار الادب العربي القديم غير واقف عند
لامعات الاصداغ الطافية على سطوحهم (١١) ح ٠٠

هذه صورة ملخصة عن سيرة الرافعي الادبية. فقد اجتاز مرحلتين كان خلال الاولى منهما اقرب الى القديم
وكان في الثانية منهما اقرب الى الحديث. غير ان التنادي في هذا التقسيم يوقعنا في خطأ فادح
لا سيما وان حياة الانسان ليست شيئا جامدا يمكننا تجزئته بقواصل واضحة وحدود جلية، لانها وحدة
ديناميكية لا تتجزأ وان خضعت لقانون التطور. لذلك اقول بوجود رافعيين الاول رجعي والتقليدي والثاني
مجدد، مع التحفظ دائما بان هذين الرافعيين هما واحد نراه في المرحلة الثانية يحمل بعض اثار
المرحلة الاولى، ونراه في المرحلة الاولى ينسحب بعض الشيء عن الرافعي المقبل. هما اثنان في واحد هو
ذلك الكاتب الذي يحن الى الادب القديم وذلك المفكر الذي يفرس وراء تلك المعاني البعيدة. غير
ان تشبيق الالفاظ وتعميد المسجع هو الذي غلب عليه في المرحلة الاولى، اما في المرحلة الثانية فقد كان
البيان الخلاق طابعه الاقوى . وما لنا في سبيل ذلك الا ان نلقي نظرة على مثل هذا الوصف لننتيقن
من نهج الرافعي المسجع واسلوبه الكتابي الموزون واهتمامه بموسيقية الالفاظ بادى ذى بدء .

الرافعي المقلد . قال يصف الحسن المصنوع «حسنا» قد نعت لون الوردة بخدها وتركزت في الوردة
الطيب، ومثلت هيف الغصن في قد غير رطيب، واتحلت لال الحب ولكن من غير حبيب، فما احسن الوجه
وهو روضة مصوره، وزجاجة مشرقة. وشهادة على الله مزورة ... كيف لا وقد امتاز بين الناس بالقياس وغير
القياس. فتبلك صور مخلوق اهلها من الطين. وهو لكثرة ما عليه من شبه الدقيق كأنه كسورة من المعجين.
حاجب يكاد يسيل حبرا. وحق كمسحة الورق. تكاد تكسب فيه اللاحاظ بمدامع الحدق. وجسم يبدل

إذا رقت عليه طيور النواظر. ويكاد يتعنر إذا رقت اجتمع الخواطر. وربما كان يتحسر عليه علماء الانار
 لانه مثال حبي بالاحترام. ولا غرو ان يكون لمعطفه صاحبه من هياكل العظام ... تنظر بعين من الجمود
 لا بقرا فيها التاويل. ولا بشرح منها التعليل. وهدى بالعين انها مصباح الروح في طريق الغيوب.
 تضيء بين الخواطر فيتمكن نورها على القلوب. وقد تبدلت الحسناء من همس الخبي بلعس الحلي وهو
 وهو في حسننها يعلم الله كالمعنى المظلم لانه في غير موضعه. والمنظم الضائع لان الشعر يعرف من
 مطلعته. لعل الطبيعة بالغت في مساعدتها على التقليد فاقامت لها الجبال مقام العذال واجرت
 الانهار في مكان الدموع الغزار. فلم يبق الا الحب الذي تجعل غضبها منه على طرف الانف وفي خيل لها
 عالم من العشاق يبيت فيهم لحظها. ويحيي منهم لفظها على انها لا ترفق بهم. ولا تشفق لكرهم ~~وتكبرهم~~
 وشكواهم من جورها الى رهم. فان لم تراهم اهلا لصدقها في الدلال. ~~الافليس~~ المساكين اهلا
 لصدقها في الجمال. وقال يصف الرائي ^(١٠٠) من هذه ~~وهذه~~ الزهراء ككتار المشبوبة الحسناء كالدمية
 المنصوبة المشرقة في زينتها كثرة الدبنار اللاتحة في ضميمنا الدموع كما يلوح النار وقد شق قلبها
 عن الجوى كما يشق الزجاج وتدافعت من طرب الهوى كما تتدافع الامواج وهي ترقص على حركات القلوب
 وتستمرسل في سهولة كانها جسم خلق من الدموع والابصار قائمة على قوامها والنفوس هائمة منها حمامها
 وما هيابي عين المحب الا غطرات الطيف اورة التسمات الصيف ولا رقصها الا معركة في الحب قام فيها
 اللحظ مقام السيف ^(١٠٠)

وقال ايضا يصف الحب ^(١٠١) من هذه ^{الطيفاء} التي تستميل ولا تميل، وقد استبدت بالجمال فلا يرى في
 غيرها شيء جميل، طامعة كالضحي فكر نجمة من ضوءها كاسفة، لا هيبة كالنجم ^{كالنجم} وفي كل ~~في كل~~ قلب من
 حبها عاصفة، وقد عبدها العشاق باطلا كما يعبد المجوس الشمس وتمنوا في دلالها المحال كما يتدنى ^{المر}
 من امس، وكذب عليهم هواها ^{المختوم} جند ما هنالك مهزم ^(١٠٢)
 لا اشك بان القارى يرى كيف يكرر الرافعي من السجع، فهو يتوخى الجمل الموزونة دائما، ذلك كان
 ديدنه في اول الامر يعتمد هذا النسق فتخرج لغته جافة كأنه يحطب ~~في~~ الالفاظ احتطابا، لا روية
 في وصفه الوجه بالزجاج، فهو تصوير سجع لا ينفخ النفس بشيء من الخيال الشفاف الذي اوثبه ~~من~~
 فيما بعد. وان لا انكر ان الرافعي يملك لغته الى ابعد حد ممكن في هذه المرحلة الاولى ولكنه
 لا يملك القوة البيانية العالية. وقد ظلت هذه النزعة التحذقية مسيطرة عليه بعض الشيء الى اخر ايامه.
 وهو الشيء الذي دفع طه حسين الى القول (اسلوب الرافعي قديم جدا لا يلائم العصر الذي نعيش فيه ...)

(١) ديوان النظارة الجزء الاول وم ٩٤

(٢) كتاب المكيين وم ١٧٧

(٣) كتاب المكيين وم ١٧٦

واتخاذ هذه الاساليب نفس ادبي لان الكمال الادبي يستلزم ان تكون اللغة ملائمة للحياة وهو نفس
 خلقي لانه كذب للكاتب على نفسه وعلى معاصريه وهو نقص من جهة اخرى لانه لا يلقى على اقل من ان
 الكاتب ينكر شخصيته ولا يعترف لها بالوجود. وای انكار للشخصية اشد من ان تحس وتشعر ثم تستحي
 ان تعف احساسك وشعورك كما تجدهما فتستعبر لهذا الوصف اساليب لا ثلاثة وضربا لا توديه¹¹
 والهك بهذه الرسالة التي سار فيها الرافعي على طريقة قديمة في اواخر عمره قال بصف صديقا له
 تغفرني الرد عليه . . . » وانتظرت رد خطابه وان تلقى الي ورقة من شجرة عتابي فما زالت تنقطع الساعات
 من الساعة ويلتقي اليم باليم ويذهب اللهم الى العتاب ويجي العتاب الى اللهم وكتابك على ذلك
 كانه الدهول ثم البقعة ثم او السهد بقطة النجم . . . لسبحان من علم ادم الاسماء كلها لهنطق بها
 وهلك وحدك المجهول السكوت . . . والسلام عليك في ازلية جفائك اما انا فاقول والسلام على يم وددت
 وهم اموت ما هذا يا سيدي وليس خبط العمر في يدك ولا امس الضائع بمحوس على من غذك ولا انا اقل
 من¹² (انت) ولا انت اكثر من (انت) ولا علمتنا من قبل انك مع القدر تحركت ومع القدر سكنت انراك لما حفت ال
 المحاكم في قلتي جعلت تغفل بهجرك اياي ولما عرفت انك من سروري اردت ان اعرف انك من الامي ام
 انت في نورك وظلامك تفعل ما يخلل الليل والنهار ام افراك بنا ذلك الذي قال خلقته من طين وخلقته
 من نار لم تحسبنا خلقنا بهذه الرقة لنعرف كيف يتحجر قلبك ويجمد وابنتنا الله في هذا العمر لتجي¹³
 انت¹⁴ يا صاحب الميزة فتحمدهم لم خلقت في يد الله ارادة ماضية وخلقنا عليك انكالا وجئنا على الطاعة شكلا
 واحدا وجئت انت من يد الله اكثلا اشكالا .

ان كان قلبك كشيء غير القلوب فما نحن شيء غير الناس وان كنت هندسة وحدها في بناء الحب فما
 خلقت ايامنا في طولها وقصرها للقياس وهب قلبك في هذه الهندسة مريما افلا يسمعا ضلع من اضلاع
 او مدورا افلا يمسكنا محيطه في انخفاضه وارتفاعه وهبه مثلنا فاجعلنا منه في الزاوية او مستطيلا
 فدعنا نتمد معه ولا الى حين ناحية . ما بال كتابنا حفظك الله بمضي سؤالا فيبقى عندك بلا جواب
 وتبينه على حركة القلب فتجعله انت مبنيا على الكوا السكون ولا محل له من الاعراب وما بالناس نقطع
 في انتظار الرد مسافة من هجرك لو طار فيها البريد لا تنتهي بكتب الحسنات والسينات الى السماء
 ولا جاس خلال الارض لتقدم حتى لا يبقى امام وتاخر حتى لا يبقى وراء فان كنت تضمن ان تزوجه
 البنا من هوشك خطابا او تنزل علينا من سائلك كتابا فقد اقل باب النبوة من قبلنا فما هذا الباب
 واحتجب الوحي من زمن بعيد فما هذا الحجاب .

لعلك تخفي اذا جاءني كتابك الكريم ان يرجم الناس ان جويل اصبح في الارض من سعاة البريد
وان السماء عادت تشع لهذه الارض فجاءتها بك بكتاب جديد لم لعلك تخاف ان تكتب بقلمك
الاعلى ان تجعل على الناس قدر لا يحتل التاحيل وان انتهى الى كتابك قامت قيامه اوربا على مصر
لان عندي صفحة ناقصة من الانجيل . . . لقد همت ان لعقب القلم الذي كتبت به اليك فاحطم
منك واجعله من ناحية في خبر كان حتى لا يبقى من ناحيتك في خبر انه وقت كيف ويحك سودت
وجه صحيفتي بما هو في سواده مداد خع المداد وفي نفسه سواد غير السواد . فقال وهل انا في هذه
النعمة الا عود وهل كنت الا حركة الفاظك من قبل وقعود وسل الدواة من امدها والصحيفة من امدها
وسل انا ملك كيف كانت تضغط على كانها تسلم سلاسا ولا تحط كلاما وسل نفسك كيف كانت في
حركتي تضطرب وقلبك كيف كان من كلمة يبتعد وفي كلمة يقترب فما ندرى يا صدي قد احببتك .
انعمدك في دنوب الزمان لم في اعدائه وناخذك في الحب من وقائعهم ام في الجفاء من اخباره فان
ابيت ان تكون منا الا سماء من ارضها وان تكون منك الا سنة من فرضها وابيت ا وانت مفرد العنن الا
ان نعدك مع كبرياتك منى بالف ونون والا ان تكون كما اردت ان تكون فاذا خاطبتك قلنا يا بها
لا يا الصديقان . . . يا غضبانان وراغبان واثمدنا ولو كان هما واحد ا . . . ولكنه هم وثنان وان ابيت
الا ما نأبى ولم ترض مع صدقنا في حبك الا كذبا قلنا لك بلغة الياس من لشد ما اصاب الزمان فينا
واخطا فيلصب بك او فليخطى وكبرا ما اعطانا الدهر واخذ فالتكن فيما ياكج ياخذ وقلنا مع
الذكر نسيان وما عسى ان ينقص الناس بانسان ومن ظن بصرفنا عن نفسه انه كبير جعلناه (من
نحونا) في باب التصغير وصلنا اصلحك الله لا يتكلم الا بفائدة ولا يسكت الا لفائدة فان اخطانا
معك في واحدة اصلحناها بواحدة والسقام

هذه هي الصورة التي اطل بها على الشعب وقد ظلت متمسكة به بعض الشيء ^{الزمن} حتى اخر
حياته ، فانتطع في ذهن الناس عن الرافعي صورة رجل رجعي متقمر في اللغة ، فنفر منه القراء نظورا
شديدا . وقد كان لهذا ^{الشيء} فعل قوي في ^{تغيير} الاحكام التي اطلقت عليه فيما بعد . وعندما انتقل
الى المرحلة الثانية من حياته الادبية حيث ابدع ببيانه ظل الناس يعتقدون ان الرافعي هو كاتب
الاسلوب القديم .

الرافعي المجدد .

قضى الرافعي الشطر الأكبر من حياته موظفا في الحكومة دون ان يحتك في ^{بالادب} الأدب والناس ليعرف اراءهم فيما يكتبون . وكانت نزعته الدينية ، لا سيما طرعه ، تدفع به الى الابتعاد عن المجتمع ليلج عالما نسجه بنفسه لنفسه هو عالم الاقدمين . ~~ولما كان اطلاق~~ ولما كان اطلاقه على الاداب الغربية ضيلا جدا فقد اکتفى بما قاله الاقدمون مبنى ومعنى ، ولكنه ما عزم ان نزل الى ميدان الصحافة بدعوة من صاحب الرسالة ، فتمتغلغل اذ ذاك في البيئات وتلمس حاجات الناس وشعر بفقرتهم وسمع ما قيل عنه . حينئذ بدأ يماشي ذوق الشعب في انشائه . ومن هنا نرى الشعب ^{الرافعي} ينتقل من الماضي ليخلق مدرسة جديدة . والغريب في ذلك الانتقال ان قدميه لم تطأ الحاضرة بل شطح دفعة واحدة من القدم المتحلق الى المستقبل الرمزي . وهكذا ظل مجهولا في مرحلته المتعاقبتين مبهما عند الناس . ففي الاولى كان متاخرا عن زمانه وفي الثانية كان سباقا على زمان الناس . وهكذا لم يدرك في جاهليته ولم يفهم في رمزته . لذا ظل الرافعي ذاك الاديب المجهول . فاذا قرى في كنبه التي فيها وهو بعد في برجه الجاهلي قيل عنه (وكل ما نريد لهذه اللغة هو ان تسلك سبيلك في الحياة ولا والاستحالة دون ان يحول بينها وبين ذلك الاسلوب قديم كاسلوب الرافعي) واذا قرى في كنبه الرمزنة الحديثة الاسلوب نسب اليه الغموض والاغراب والمحموري ^{فصل} المحمود (الله اقم انيلا افهم بجية شيئا ... فان الذين يريدون ان يروضوا انفسهم على الطلاس واقتحام الصعاب وتجنبهم العظام من الامور يستطيعون ان يجدوا في كنب الرافعي ما يريدون ... اعترف بانني عاجز عن ان اتى بكتاب ككتاب الرافعي او بفصل كفصل الرافعي لان الله لم يرد ان اكون غامضا غموض الرافعي) .

ان مقالات الرافعي في (الرسالة) تمثل لنا بوضوح ذاك الشطر الثاني من حياته الذي رجع فيه عن الكد وراء السجع ، وهذا كان مجددا في بياته الرمزي . هذا مع القول بان الرافعي لم يقتل يوما من الايام عن الاعتناء بالجملة العربية الصحيحة فهو يكتب باسلوب قوي وجملة متأسدة ساعيا من وقت الى اخر وراء السجع المستحب الذي باتي عفو الخاطر . والرافعي اذا وصف شيئا بربك ما يصفه لعظم الدقة في ملاحظته الصور التي كبر امامه ورسمها بطريقة يدخلك الى صميمها دونلا مباشرا فاسمعه مثلا كيف يصف

١١ حديث طبري واربعة اجزاء السنة بسلام طه حنين رحمه ١٤

(٢٠) كلام طه حنين في حديث طبري واربعة اجزاء السنة رحمه ١٤٢٢

رجلا جاحظ العينين قال (ولما فرغت من طوافي على دور الصحف جاءت هي تطوف بي في نوبي فرايتني ذات ليلة ادخل أحداها لاهدي (وحي القلم) الى الاديب المتخصص فيها للكتابة الادبية ودلوني عليه فاذا رجل مربع مشوه الخلق صغير الراس دقيق الحنق جاحظ العينين تدوران في محجرهما دورة وحشية كأننا رعبته الحياة مذكان جنبنا في بطن امه لانه خلق للاحاساس والوصف او كأننا ركوب فيه هذا النظر الساخر ليرى اكثر ما يرى غيره من اسرار السخيرة فينبغ في فنونها. او هو قد خلق بهاتين العينين ~~مفهم~~ الجاحظتين دلالة عليه من القدرة الالعية بانه رجل قد ارسل لتدقيق النظر وللرافعي مقدرة غريبة لوصف الحيوانات بنطقها شاعرة واعية ما يجول في خاطرها كأنها آدميات تعقل وتحس فهو يرفع عنها ستار جلدها ليكشف اعمايق شعورها وبذلك عقدة ~~يحبها~~ بكلمها ببيان اخاذ وروعة ما بعدها روعة في الانشاء فاسمعه يد وصف الاسد في مقالته الاسد ~~عالم~~ وكان الاسد الذي اختاروه للشيخ اغلظ ما عندهم، جسيما، ضاربا، عام الوحشية، منزيل المضل شديد الغضب الخلق، هراسا، فراسا، اهوت الشدق بلح شدقه من ~~مخبر~~ سمته وروسته كفتحة القبر ~~يشبه~~ ان جوفه مقبرة ويظهر وجهه خارجا من لبدته، بهم ان ينقذف على من يراه ~~يملكه~~ ~~ضاحك~~ واجلسوا الشيخ في قاعة واشرفوا عليه ينظرون، ثم فتحوا باب القفص من اعلاه فجذبوه فارفع، وهجموا بالاسد يزجرونه، فانطلق يزجر ويترار زجيرا تنشق له المرائر، ويتوهم من يسمعه انه الورد وراء الصاعقة! ... ثم اجتمع الوحش بنفسه واقشعر، ثم تغطى كالمنجنيق بقذف الحجارة الصخرة، فما بقي من اجل الشيخ الا طرفة عين، ~~ورأى~~ على ذلك ساكنا مطرقا لا ينظر الى الاسد ولا يحفل به، وما منا الا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الفزع والرهبة والاشفاق على الرجل .

(ولم يهتأ الا زهول الاسد من وحشيته، فاقمى على ذنبه، ثم لمق بالارض هنيهة يفتش ذاروبه، ثم نهض لهضة اخرى كأنه غير الاسد، فمشى مشرقا ثقيل الخطو تسمع لفاصله قعقعة من شدته وجسامته، واقبل على الشيخ وطلق يحتك به ويلحظه ويشمه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذي يانس به، وكأنه يعلن ان هذه ليست محاولة بين الرجل التقي والاسد، ولكنها مبارزة بين ارادة برابن طولين وارادة الله ... وخرسته روح الشيخ فلم يبق بينه وبين الآدمي عقل، ولم يكن منه بارا لم ~~كلم~~ ودم فلو اكل الضوء والهواء والحجر والحديد، كان ذلك اقرب وابسر من ان يأكل هذا الرجل المتمثل في روحانيته لا يحس لمصورة الاسد معنى من معانيها الفاتكة، ولا يرى فيه الا حياة خاضعة مسخرة للقوة المعطو التي هو مؤنس بها ويتوكل عليها، كحياة الدودة والنملة وما دونها من الهول والذر ... !

(ورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه تعالى، فهو ليس بين يدي الأسد ولكنه هو الأسد بين يدي الله، وكان مندمجا في يقين هذه الآية: «وأصبر لحكم ربك فانك بأعيننا»^١ ورأى الأسد رجلا هو خوف الله وخوف منه، وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيها الناقصة، خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية؛ فليس في الرجل خوف ولا هم ولا جزع ولا تعلق برغبة، ومن ذلك ليس في الأسد فتك ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة. ونسى الشيخ نفسه لكانما رآه الأسد ميتا ولم يجد فيه (انا) التي تهاكلها، ولوان خطرة من هم الدنيا فحطرت على قلبه في تلك الساعة او اختلجت في نفسه خالجة من الشك، لفاحت رائحة لحمه في خباياهم الأسد فتصرق في ~~الليل~~ في انيابه ومخالبه .

(قال وانصرفنا عن النظر في السبع الى النظر في وجه الشيخ، فاذا هو ساهم مفكرهم رفعوه وجعل كل منا يظن ظنا في تفكيره، فمن قائل انه الخوف اذ هله من نفسه، وقائل انه الانصراف بعقله الى الموت وثائق

يقول انه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب، ويهم جملة ان هذه حالة من الاستغراق بسحر بها الأسد؛ واكثرنا في ذلك وتجاربنا فيه، حتى سأل ابن طولون: ما الذي كان في قلبك وفيهم كنت تفكر ؟ فقال الشيخ لم يكن عليّ بأس، وانما كنت افكر في لعاب الأسد، اهو طاهر ام نجس. . . »

ارابت الرافعي كيف يسمو بعبقريته الادبية. كيف يمتزج بدقائق الاشياء فيجعلها تدرك وتشعر. وكيف يكون واقعيًا بمثاليته اذ يصفا لنا كما كانت تريد ان تكون او يجبان تكون. تلك هي واقعية المثالية او مثالية الواقع، وفي ذلك سر من اسرار العبقرية الادبية. واسمعه ايضا كيف يصف هزلا احدهما ^{هزيل} حزين والآخر سمين قال . . . » كان القط الهزيل مرابطا في زقاق، وقد طارد فارة فالتحجرت في شق، فوقف المسكين يترصص بها ان تخرج، ويؤامر نفسه كيف يحالجها فيبتزها؛ وما عقل الحيوان ^{له} حرفة عيشه لا من غيرها؛ وكان القط السمين قد خرج من دار اصحابه يريد ان يفرج عن نفسه بان يكون ساعة او بعض ساعة كاقطه بعضها مع بعض، لا كاطفال الناس مع اهلهم وذوي عنايتهم، وابصر الهزيل من بعيد فاقبل بمشي نحوه، ورآه الهزيل وجعل يتأمله وهو يتخلع تخلع الأسد في جسده، وقد ملاه جلده من كل اقطارها ونواحيها، وسطته التكمة من اطرافها، وانقلبت في لحمه غلظا، وفي عصبه شدة، وفي شعره برقا، وهو يمتج في بدنه من قوة وافية، ويكاد اهابه ^{ينشق} يخفق سنا وكدنة؛ فانكسرت نفس الهزيل، ودخلته الحسرة، وتضعف ^{القط} الجلي لمرأى هذه النعمة موحية مخوفة؛ واقبل السمين حتى وقف عليه، وادركه الرحمة له، اذ رآه نحيفا متقبضا، طوى البطن، بارز الاضلاع، كانما همت عظامه ان تترك مسكنها من جلده لتجد لها ماى اخر .

فقال ^{للهما} لها: ماذا بك؟ ومالي اراك متيسا كالبيت في قبره غير انك لم تمت. وما لك اعطيت الحياة غير انك لم

لم تحي. اوليس الهر منا صورة مختزلة من الاسد، فمالك - ولجحك - رجعت صورة مختزلة من الهر؟
اغلا لي بسقونك اللبن، ^{وطعمونك} الشحمة واللحمة، وياتونك بالسك، ويقطعون لك من الجبن ابيض
واصفر، ويقتون لك الخبز في المرق ويوشرك الطفل ببعض طعامه، وتذلك الفتاة على صدرها، وتسمعك ^{وتسمعك}
المرأة ببديها، ويتناولك الرجل كما يتناول ابنه؟ وما ^{لجده} لجلدك هذا مغبرا كانك لا تلتطع بلعابك،
ولا تتعهد بتنظيف، وكانك لم تر قط فتى او فتاة يجرى الدهان بريقا في ظهره شعره او شعرها،
فتحاول ان تصنع بلعابك لشعرك منيعها، وارك مترايل الاعضال متفككا حتى ضعفت وجهت،
كانه لا يركبك من حب النمل على ^{قبحه} قدر من كسلك وراحتك، ولا يركبك من حب الكمل على قدر
من نعيمك ورفاهتك، وكان جنبك لم يحرقا طفنة ولا حوشية ^{ولا} وسادة ولا بساطا ولا طرازاً،
وما اشبهك بامد اهلك الا يجد الا العشب الاخضر والشمع اليابس، فما له لحم ^{يحيي} يجي
من لحم، ولا دم يكون من دم، وانحط فيه جسم الاسد، وسكنت فيه روح الحمار...
(قال الهزلي: وان لك ^{لحم} لحمه وشحمة، ولبنا وسكا، وجبنا وفنانا، وانك لتقضي يومك تلتطع جلدك
ماسما وفاسلا، او تتطج على الوسائد والطنافس نائما ومتددا، اما والله لقد جائتك النعمة والبلادة
معا، وصلحت لك الحياة وفست منك ^{الفرجة} الغريزة، واحكمت ^{طبعها} طبعها وانقضت طبعها، ورحمت
شبعها وخسرت لذة، عطفوا عليك وافقدوك ان تعطف على نفسك، وحملوك واعجزوك ان تسقل، وقد
صرت معهم كالدجاجة: ^{تسم} لتذبح، غير انهم يذبحونك دلالا ولالا. انك لتاكل من خوان
اصحابك، وتنظر اليهم ياكلون، وتطمع في مواكلتهم؛ فتشبع بالعين والبطن والرغبة، ثم لا شي غير هذا؛
وكانك مرتبط بحبال من اللحم تاكل منها وتحبس فيها. ان كان اول ما في الحياة ان تاكل،
فاهون ما في الحياة ان تاكل؛ وما يقتلك شي كاستواء الحال، ولا ^{يحبك} شي كفاوتها؛ والبطن لا
يتجاوز البطن، ولذته لذته وحدها؛ ولكن ابن انت من ارتك من اسلافك، ومن ^{الاعضاء} الملل الباطنة
التي تحركنا الى لذات ^{الاعضاء} متاع ارواحنا، وتنبنا من كل ذلك وجودنا الاكبر، وتجعلنا نعيش
من قبل الجسم كله، لا من قبل المعدة وحدها...
(قال السمين = نالكه لقد اكسبك الفقر حكمة وحياة، واراني بازائك معدوما بزوال اسلافي مني،
واراك بازائي موجودا بوجود فيك؛ ناشدتك الله الا ما وصفت لي هذه اللذات التي تملو ^{بها}
بالحياة عن مرتبة الوجود الاصغر من الشيع، وتستوطيل بها الى مرتبة الوجود الاكبر من الرضي.)

(نقال المنزل انك ضخم، ولكنك ابله، اما علمت ~~هكذا~~ ربحك ان المحنة في العيش هي فكرة وقوة، وان الفكرة واقية
 هما لذة ومنفعة، وان لهفة الحرمان هي التي تضع في الكسب لذة الكسب وسعار الجوع هو الذي يجعل
 في الطعام من المادة طعاما آخر من الروح، وان ما عدل به عنك من الدنيا لا تعوضك منه الشحمة واللحمة
 فان رغباتنا لا بد لها ان تجوع وتفتدي كما لا بد من مثل ذلك لبطوننا، ليجند كل منهما حياته
 في الحياة؛ والامور المطفئة كهذه التي انت فيها هي للحياة امراض مطمئة، فان لم تنقص من لذتها
 فهي لن تزيد في لذتها، ولكن مكابدة الحياة زيادة في الحياة نفسها. وسر السعادة ان تكون فيك القوى
 الداخلية التي تجعل الاحسن احسن مما يكون، وتمنع الاسوأ ان يكون اسوأ مما هو؛ وكيف لك بهذه
 القوة وانت وداع قار محصور من الدنيا بين الايكدي والارجل؟ انك كالاسد في القفص، صغرت اجتهت لآل
 تزل تصغر حتى رجعت ^{تفصا} بقده ~~وحيثما~~ وجبسه، فصغر هو ولم يزل يصغر حتى اصبح حركة
 في جلد؛ اما انا فاسد على ~~مخالفي~~ وروا انيابي، وفيضتي ابدا تتسع ولا تزال تتسع ابدا، وان الحرية
 لتجعلني اتشم من الهواء لذة مثل لذة الطعام، واستخرج من التراب لذة كذبة اللحم، وما الشقاء الا خلتان
 من خلال النفس؛ اما واحدة فان يكون في شرك ما يجعل الكبير قليلا، وهذه ليست المثلي ما دمت
 على حد الكفاف من العيش؛ واما الثانية فان يكون في طمعك ما يجعل القليل غير قليل، وهذه ليس لها
 مثلي ما دمت على ذلك الحد من الكفاف؛ والسعادة والشقاء ~~كل~~ كالحق والباطل؛ كلها من قبل ~~الذات~~
 الذات، لا من قبل الاسباب والعلل؛ فمن جاراها سعد بها، ومن عكسها عن مجراها فيها يشقى .
 ولقد كنت السلة اختل فارة انحجرت في هذا الشق، فطعمت منها لذة وان لم اطعم لحما، وبالاس
~~و~~ رمانني طفل خبيت بحجر بريد عقرى فاحدث لي وجعا، ولكن الوجع احدث لي الاحتراس، وساغش
 الآن هذه الدار التي بارائنا غمها، فابة لذة في السلة والخطفة والاستراق ولا تنهاب، ثم الوثب عددا بعد
 ذلك؟ هل ذقت انت بروحك لذة الفرصة والتمرة، او وجدت في قلبك راحة المخالسة واستراق الخطفة من
 فارة او كجور، او ادركت يوما فرحة النجاة بعد الروقان من عابت او باغ او ظالم؟ ~~كل~~ نالوك لذة
 الظفر حين هولك طفل بالضرب، فهو لته انت بالعض والعقر، فقر عنك منهزما لا يلوي ...؟
 قال السمين = وفي الدنيا هذه الذات كلها وانا لا ادري؟ هلم اتوحش معك، ليكون لي مثل
 تترك ودهائك واحتمالك، فيكون لي مثل راحتك المكدودة، ولذتك المتعبة، ~~هيك~~ المحكم عليه منك وحدك؛
 وساتصدى ~~للك~~ معك للبرق اطارد، واوانبه، واغاديه ~~بالحجارة~~ و...
 فرارهم

فقطع عليه الدهيزيل وقال = يا صاحبي، ان عليك من لحمك ونعمتك علامة اسرك، فلا يلقانا ^{اول} طفل
الا اهرى بولك فاخذك اسيرا، واهوى علي بالضرب لانطلق حرا، فانت على نفسك بلا، وانت بنفسك بلا.
علي. وكانت الفأرة التي انحجرت قد رات ما وقع بينهما، فسرهما اشتغال الشرب بالشر، وطالت مراقبتها لهما حتى
ظلت الفرقة ممككة؛ فوثبت وثبة من بنجو بحياته، ودخلت في باب مفتوح؛ ولحمها الهزيل كما تلح العين ^{طنت}
برقا اوض وانطفأ، فقال للسجين: اذهب راشداً، فحسبك الآن من المعرفة بنفسك وموضعها من الحياة، ان
الوقوف معك ساعه هو ضياع رزق، وكذلك امتالك في الدنيا، هم بالفاظهم في الاعلى وبمعانيهم في الاسفل ^(١)
هكذا يبدع الرافعي مرتفعاً الى فوق ودائماً الى فوق. وهو يجعل من الفن الكتابي نشاطاً في الباطن
بمنتج بعض الشيء. مهلهلها مداخلا اسراره متحدا بكياته ليصبحه الى حد ما، رسالة الاديب تقم على
ان يرى مجاز الشيء لا الشيء ذاته، ويقدره من داخله هو، ليرينا ما كان بإمكان هذا الشيء ان يقوله
لو خلق له لسان ينطق وقل يدرك. فاسمعه كيف يصف الخروخين ...

اجتمع ليلة الاضحي خروخان من الاضاحي في دارنا؛ اما احدهما فكش ^{الشيء} يحمل على رأسه من ^{قرنيه} قرنيه ^{الطير} الطير
شجرة السنين، وقد انتهى منه حتى خاق جلده بلحمه، وسح بدنه بالشم سحاً، فاذا ^{هو} تحرك
خلته سحابة يضطرب بعضها في بعض، ويهتز شيء منها في شيء؛ وله وافرة يجرها خلفه جراً، فاذا
رايتها من بعيد حسبتها حملاً يتبع اباه؛ وهو اصوف قد سبخ صوفه ^و واستكف وتراكم عليه؛ فاذا مشى
تبخر فيه ^{تبخر} تبخر فيه ^{تبخر} تبخر الغانية في حلتها، كانا يشمر مثل شعورها انه يلبس سراويل
جسمه لا ثوب جسمه؛ وهو من اجتماع قوته ^{وجبروته} اشبه بالقلعة، يملوها ^{هي} هامة كالبحر الحربي
فيه مدفعان ^{لهما} بارزاق؛ وتراه ابداً مصعراً خده كأنه امير من الابطال، اذا جلس حيث كان شعرانه
جالس في امره ^ك ونهيه، لا يخرج احد من نهيه ولا امره . واما الاخر فهو جذع في راس الحول
الاول من مولده. لم يدرك بعد ان يضحى، ولكن جيء به للقم الى لحمه الغض؛ فالاول اضحية وهذا
اكولة؛ وذاك يتصدق بلحمه كله على الفقراء، وهذا يتصدق بثلاثين ويبقى الثلث طعاماً لاهل الدار .
وكان في ليله وترجرجه وظرف تكوينه وسج طبعه كانا يصور لك المرأة انسة رقيقة ^{شعرية} ^{طرية} اما ذاك الضخم
الماتي العجبر الشامخ، فهو صورة الرجل الوحشي اخرجته الغابة التي تخرج الاسد والحية وجذوع الدوحة
الضخمة، وجعلت فيه من كل شيء منها شيئاً يخاف ويتقى .

(وكان الجذع ينمو لا ينقطع نفاؤه، فقد اخذ من قطيعه انتزاعاً فاحس الوحشة وتنبهت فيه غيرة الخوف من
الذئب ^{والفأرة} فزادته الى الوحشة قلقاً واضطراباً؛ وكان لا يستطيع ان ينفلت، فهو كانا يهرب في الصوت
ويحدو فيه عدوا . اما الكباش فيرى مثل هذا سبة لقرنيه العظيمن، وهو اذا كان في القطيع كان كبشه
وحاميه والمقدم فيه، فيكون القطيع ^{معهم} وفي كفه ولا يكون هو عند نفسه مع القطيع؛ فاذا فقد

جماعته لم يكن في منزلة المنتظر ان يلحق بغيرها لاحتياج به فيقلق ويضطرب، ولكنه في منزلة المرتقب ان يلحق به غيره طلبا ~~للمحابة~~ وذمارة، فهو ساكن رابط الجاش مرتبط النفس، كمالا كانا يتصدق بالانتظار ^{وقد يعتقد القارئ} وقد يعتقد القارئ ان الرافعي لا يبدع مثل هذا الابداع الا في وصفه الحيوانات، فاسمعه اذن كيف يصف مجلة ^{المقتطف} المقتطف شيخ مجلاتنا، كل من اولاده واحفاده، وهو كالجد الاكبر، زمن يجتمع، وتاريخ يتراكم، وانفراد لا يلحق، ولم يزد على العالم بانه في الجيل الذي تفرض اجلا لها فرضا وتجب لها الحرية وجوا ويتضاعف منها الاستحقاق فيتضاعف لها الحق. وهل الجد الا ابوه في فيها ابوه اخرى، وهل هو الا عرش حي درجاته الجيل تحت الجيل، وهل هو الا امتداد مساقاته العصر فوق العصر، والمقتطف يكبر ولا يهزم، ويتقدم في الزمن تقدم المختبرات ماضية بالنواميس الى النواميس، مقيدة بالجيوش بالبداهة الى الغاية، وهو كالعقل المنفرد بحقيقته، واجبه الاول ان يكون دائما الاول، فلقد استاء هذا المقتطف ~~ولا سيما~~ وما في الجلات العربية ما يغني عنه، ثم طوى في الدهر سبعة وثلاثين مجلدا اقامها سبعة وثلاثين دليلا على ان ليس ما يغني عنه، ثم اسفّت الدنيا حولت باخلاصها وطبعها، وتحولت مجلات كثيرة الى مثل الرافعات والمخينات والسجلات، وفي هو على وفائه لبعده الملبي والسمو فيه وللمسوبة، كانا اخذ عليه في العلم والادب ميثاق كميّناك النبيين في الدين والفضيلة، فبين يديه الواجب لا الغرض، وهه الابداع بقوى العقل لا الاحتيال بها، وهدبه الحقيقة الثابتة في الدنيا لا الاحلام المتقلدة بهذه الدنيا، وطريقه ^{يكل} ذلك طريق الفيلسوف، من هدوه نفسه لا من احوال الدهر، فهو ماضي عيسى اليقين، نافذ الى الثقة، منتقل في منزلة منزلة من يقينه الى ثقته ^(١) ومن ثقته الى يقينه ^(٢).

ثم يعتلي الرافعي الى درجة من الرمزية اقول عنها انه يساوي بها احاطم بياني الغرب، وقد تنبه الى ذلك فيليكس نارس بقوله عن (رؤية في السماء) «هذه قطعة ان وجدت لها مثيل من حيث الفن بين ما كتب اشهر الرمزيين من ابنا الغرب فانك لن تجد لها بشبه روحه بيانها ولا اشراق الهامها، وقد تلاوت في سطورها من الاحاديث الشريفة ومن حكم السلف

(١) دمج اتعلم الجزاءات دمج ٤٩.

(٢) دمج اتعلم الجزاءات دمج ٤٩.

قصة من انت يرحم الله بكم

قال انا ابن ذاك الرجل الفقير المعيل الذي قال لشيخك ابراهيم بن ادهم العابد الزاهد طوبى لك فقد تغرقت للعبادة بالعزومة فقال له ابراهيم لروحه تنالك بسبب العيال افضل من جميع ما انا فيه. وقد جاهد ابي جهاد قلبه وهله ودينه وحمل على نفسه من مقاساة الامل والولد حملها الانسان العظيم وفكر لخبر نفسه واغتم لخبر نفسه وعمل لخبر نفسه وآمن وصبر ووتقوى لاية الله حين نزوح فقيرا وضمان الله حين اعقب فقيرا. فهو مجاهد في سبيل كثيرة لا في سبيل واحدة كما يجاهد الخزاة: هؤلاء يستشهدون مرة واحدة اما هو فيستشهد كل يوم مرة فيهمومه بنا. واليه يرجع الله بفضل رحمته ايانا في الدنيا. اما بلغك قول ابن المبارك وهو مع اخوانه في الخزوة اتعلمون عملا افضل مما نحن فيه قالوا ما نعلم ذلك. قال انا اعلم قالوا فما هو قال رجل متعفف على فقره ذو عائلة قد قلم من الليل فنظر الى صبيانه نياما متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه فعمله افضل مما نحن فيه: يخلع الاب المسكين ثوبه على صبيته ليدفنه به ويغطي بجلده البرد في الليل! ان هذا البرد يا ابا خالد تحفظه له الجنة هنا في حر هذا الموقف كانها مومنة عليه الى ان توديه وان ذلك الدكة الذي شمل اولاده يا ابا خالد هو هنا يقاتل جهنم ويدفعها عن هذا الاب المسكين. قال ابو خالد وبهم الوليد ان يضيي يدي. فما املك نفسي فامد يدي الى الابريق فانشطه من يدي فاذا هو يتحول الى عظم ضخم قد نشب في كفي وما يلبها من اسلة الذراع فغابت فيه اصابعي فلا اصابع لي ولا كف واي الابريقان يسقبني وصار مثله بي وتجدت هذه الجريمة لتشهد على ما اخذني العول والفرج وجاء ابراهيم العراء فوق في يد الوليد فترك يرضي. وقلت لنفسي ويحك يا ابا خالد ما اراك الا محاسبا على حسناتك كما يحاسب المذنبون على سيئاتهم فلا حول ولا قوة الا بالله. ولتختني الصيحة الرهيبية ابن ابو خالد الاحول الزاهد العابد. قلت ها انذا قبل طاروس من طاروس الجنة قد حص ذيله فضاع احسن ما فيه! ابن ذبلك من اولادك! وابن محاسنك فيهم! اخلقت لك المرأة لتجنبها، وجعلت نسل ابويك لتتبرأ انت من النسل! جدت من الحياة باشياء ليس فيها حياة! لما صنعت للحياة نفسها الا ان هربت منها، وانهرزت عن ملاقاتها! ثم انت غافل جائرة النصر على هزيمة! عملت الفضيلة في نفسك ونشأتك، ولكنها عقت فلم تعمل بك. لك الف الف ركة، ومثلها سجدات و التواقل، ولخير منها كلها ان تكون قد خرجت من صلبك لعضاء تركع وتسجد. قتلت رجولتك، ووادت فيها النسل، ولبثت طوال عمرك ولدا كبيرا لم تبلغ رتبة الاب! فلئن امنت الشريعة لقد عطلت الحقيقة

قابل بين هذا الوصف في طوره الثاني وبين وصفه والرائعة في طوره اول اول نرى الفرق بين الراقمين

المقلد والمبدع^(١١) وله (في وصف الجمال وصورة التعبير عن اثاره في النفس والروح طريقة متناهية هو فيها طراز وحده بين ادباء العربية في جميع عصورها، فانت من وصف الجمال الانساني امل لوحات الجبلة^{سائبة} كعاد الحياة والعاطفة والروح تنطق مجتمعة من خلالها. وهو في الوصف الروحي العاطفي للجمال الانساني المادي صاحب مدرسة مدت في فراغ الادب نغمة ما اغنت. استعارة راته وتشابهه عن سداها^{نظير} شيئا. فان روح التعبير عن الجمال التي تسللت الى اناهل فيدياس الاغريقي فانشأت له من الصخر الاصم هياكل ومناهل بشعة في عاطفتها وحيويتها وروحها، قد هبطت بعد اجيال هلى قلم الراقمي ...

(قال الاستاذ رحمه الله في كتابه "حديث القمر" يا رحمة لهذا الجمال! وجهه وضيء الطلعة كان السعادة القبلية يحمل اليه دم الشباب من القلوب فيتحول فيه الى جنك^{نظير} وفتنة، وكان جها معاني الحسن التي تتكبر في خديه حقيقة الهبة تطل على النفوس من وراء الشفق. فيه عينا تظفران والله برح تكاد^{نظير} لا يفهم عنها الا كأنها ناطقة، وتفيضان لالا وتغترقا فكانا تلقيان على الروح فترة تحلم فيها من احلام السماء وتستيقظ. وخدان تعبيرا فيهما الجمال فوق يتلف عن بعين وشمال وتراها اسيلين بارزين، فيا لله! هل هما ثديان صغيران من الورد برضعان طفل الحب^(١٢)؟))
وفي كتب الراقمي الاربعة (حديث المقلم القمر) / السحاب الاحمر / رسائل الاحزاب / اوراق الورد / امثلة كثيرة من روحانية حبه وسيله الرمزي لوصف العواطف الانسانية. فاسمعه يقول ولم يبدع^{نظير} لك ابتسامة يزيد سكون الطرف من غموضها، والاخرى^{نظير} استطلاق وجهك من صراحتها، والثالثة على استحياء كان هذا معلقا فيها. ولك ابتسامة ملحنة كأنها نشيد وجد بترقرقها صوتك الرخيم الذي هو ايضا تصوير الابتسامة بحروف ورنين^(١٣))).

((وقلت للزهرة يا حبيبتي انما انت كلمة ابتها الزهرة الذائقة، وما ذبولك الا سحابة على نور معنى. امن للغة المقلد القبلية انت، وقد جئت وهد رسالة من شفتيها الي فانكشمت من حياء وخفوة^{نظير} ام من لغة الابتسام، وقد جئت تحية من وجهها وفيك ذلك لمعنى من غموض^{نظير} الكلام^{نظير} فانت

من المعاني

(١١) ارجع صفحة ٢٠ من هذه الرسالة.

(١٢) الرسالة عدد ٢٠٦ يونية ١٩٢٧ السنة ١ في سنة ١٩٩٠.

(١٣) اوراق الورد رقم ٩٧

وهذه نظرة - نظرة واحدة - يخشع فيها بصرك لان تتمعن لك من عيني التفت مرة باعتذار لي من عينك ... وهذه نظرة بين ^{المعنيين} الصحن تحتل كليهما = اسامة الدلال التي واحسانه علي .
وهذه نظرت بين اللقائين تجذب في قلبك الخوف والامل بمقدار واحد ... تلك يا حبيبتي صور نظرائك في معرض قلبي وتقابلها هناك الصور الاخرى التي لا تريد ان اصفها لك لانها الصور المسكينة صور احلام^(١) . . . وقال -

((اما انها فتنة خلقت امرأة فاذا نظرت اليك نظرتها الفاترة فانما تقول ~~فانما تقول~~ لقلبك اذا لم تأتي الي فانا اتية اليك و خلقت مقدرة تقديرا كان كل شيء فيها وضع قبل خلقه في ميزان الجمال ووزن هناك باهو القلوب وسحابها . وكانها بعد ان تم تكوينها ارسلت الملائكة في دمهنا نقطة عطر فهي تنفخ على القلوب برائحة الجنة . وهي ابدا تشعر ان في دمهنا شيئا لا يوصف ولا يسمى ولكنه يجذب ويفتن ولا نراها الا على حالة من هذين حتى ليظنها من كل من حادتها انها تحبه وما بها الا انها تفتنه ... رشيقة جذابة تاخذك اخذ السحر لان عطر قلبها يغذ الى قلبك من الهواء فاذا تنفست امامها فقد عشقتها ... وراها ساكنة واحدة امام عينيك ولكن قلبك يشعر انها تهتز فيه وتضطرب فلا يزال قلعا ناعرا بتملل . اما انوسها فاسلوب في الجمال على حدة فاذا لقيتها لا تلبث ان ترى عينيك تبحثان في عينيها عن سر هذا الاسلوب البديع فلا تعثر فيهما بالسر ولكن بالحب . واذا كنت ذكرا فاضافت الي ما فيها من بواعث الهوى احبابها بك فقد احكمت لك العقدة التي لا حل لها ... وهما تكن من رجل باذخ فانك بازائها ترى كيف ينتقاد جزء من الطبيعة لجزء من الطبيعة فلا ^{بؤس} بؤس لك ولا مخج من حبها وهما تكن من جبل شامخ فانك تتهاافت تحت اشعة عينيها كما تستدحج جبال الثلج في القطب اذا زاحها عما حولها شعاع رقيق من اشعة الشمس تتنهّد فيه نسمة ضميقة . وهي في لونها ذات بياض اسمر محمر وضيء يفتقر العين حمضا وكان ائتلاف الالوان الثلاثة فيها جملة مركبة من لغة النور والهواء والحرارة ومنهاها الجمال القوي الصحيح . هيفاء ملتفة لم يهبط جسمها ولم يربّ تملأ قلبك كما تملأ نومها . وتتمايل اعطافها فلو خلق عين البان امرأة لمنى يتهادى في مثل مشيتها . وتتظر نظرت الغزال المذمور الهم انه جميل ظريف فلا يزال مستوفزا يتوجس في كل حركة صاددا بطلبه^(٢) . . .))

١١) اوراق الورد ص ٦٦

١٢) ركن العزّال ص ٧٥

البرافمي الفيلسوف

لا اقصد بكلمة فلسفة عمارة فكرية ترابطت اجزاؤها بدقة واحكام وتسلسلت حلقاتها منذ نقطة انطلاق بحيث ترى السابقة ماسكة بعنق اللاحقة في اتجاه انحداري من مقدمات الى نتائج . ولا اقصد ايضا بمحاولة لتحليل المعرفة وارجاع كل شيء الى سببه الاول كي نصل في النهاية الى مطلق الوجود وكلي الكمال . هذا تفكير ميتا فيلرقي ^{حرف} لم يتصدى له الراغمي في ادبه ، وانما اعني بكلمة فلسفة نظرات تأملية في الحياة وهيئة في ^{الروح} الطهر لم تقارقه يوما من الايام فجاءت كتابته لمحات نفاذة ترسلها بصيرة شفاقة الى اعماق الكيان الانساني (وهي حركة الغوامس الدائب لا يقف عند السطح ولا يستقر على القاع وانما يضرب ببديه القوينين في اغوار البحر وقد انقطع عن ^{البحر} شواغل الناس بالعين والاذن)

كان الراجعي مولعا بالتفسير في مظاهر الوجود، متحمسا بالانكشافات الى الحياة النشأ
وجدانيا، فاقاس بشرائع القرآن ^{والنشر بالحكم} ~~والمعنى بالحكم~~ حتى رأى ما يراه وقال ما يقوله وذهب مذهبه.
لذلك كانت فلسفته (فلسفة القرآن وادبه قام منها مقام ابن رشد من ارسطو) بقرر ويحذر ويدافع
من غير ان يكون لنطقه حكم ولا لرايه اعتراض (١٤) هذا ولا تخلو الراجعي من نظرات بعيدة
في الوجود تكفل له الخلود مع الالام بين ائمة المفكرين في الشرق، فانت لا تفرا صفحة من ادبه
الا وتنفذ بك الى ارحب فضاءات الحقيقة الانسانية مما ياخذ بمجامع الفؤاد ويسطو على النفس.
تراه يسبح في دلائل الذات ويرفع الستار ^{لكن} الستار عن مضامين الباطن هيها تها تها حجابا كؤفة
عن ابعاد الروح. فبرى القارى فيما يرسمه الراجعي رسم نفسه وفي حكايات الراجعي حكايات قلبه.
وهكذا يدلك على ذاتك حين يتكلم عن ذات سواك تلك الذات المضمرة التي يتكلم ~~في~~ ^{عنها} ونحن

لها الا في بعض اللحظات الشاردة من صيرورتنا نحن، وهي لعمري ميرة لا يتصف بها الا من استطاع ان يمزج عن بصيرته اخشية الحواس ويتغذ بخرم بديهته الى الانسانية القائمة في كل فرد بشري. الراجعي من العقول الجبارة في حقل التامل الوجداني، يرى الطبيعة املهم كتابا بخر مفتوحا يقرأ في سطوره كهفا قلب من حيا صفحاته، فاذا نظر الى اوراق الشجرة عبر منها

(1) من كلام احمد حسن الزيات في لمحة بعد ٢٥٢ سنة لاداءه ٩ مايو ١٩٢٨ ومجم ٧٢٢

Λ. C " " " 14 " " C o L " " " " " " " " " " (C)

الى الخفي وهبط بارتفاع في الفكر من الاوراق الى الاغصان الى الساق في ما استقر تحت الغراب ثم
 فاص وابتعد في المحيطين تنابا الخيب وهكدا ينتقل من الشجرة الى الارض ومن الارض الى الطبيعة
 ومن الطبيعة الى الحياة فالى الكون بل الاكوان ومن ثم الى الوجود العلم في جملة، واذا وقف بك
 امل البحر او تفك امل في النفس وارتفع بك حتى النجم وراك خلف النجم في مدى الاقصى ابعادا
 تنطوي على ابعاد ادب الراقعي ادب غيبة عن ارضية الحس وارتفاع الى سماوية الفكر بعيد الرماية
 الى فوق دائما الى فوق بعيد الارتواء في الاغوار ودائما في الاغوار فاسمعه يقول مثلا عن سراب الحياة
 (ما عسى ان تكون الحياة بكل ما فيها الامدة محدودة على ظهر الارض تجعلها اوهاه الانسان وطاقمه
 وحمايته وجهله وكبرياؤه كأنها الابد كله فيكيد ويحمل ويذخر ويمناء ويحزن ويطمع ويحرس
 على نسبة من ذلك لا من نفسه اي نسبة ابدية لا انسانية، الا انما مثل هذا الانسان المغرور مثل رجل
 جمع الله عليه المصيبين في بصرته وكسبرته فضل في مكان فهو يقبل ويدبر في دائرة من فضاء الارض
 لا يهتدي الى الوجه ولا يذهب على السمات فيتوهم ان الطريق لا ينتهي وانه وقع في صحراء لم تدرسها
 عكازته، وليست من علم رجله في جغرافية هذه المسكونة، وكما لا تكون الطريق عند هذا الاعى الا من علم رجله
 فافكر طرق الحياة عند هؤلاء المنفلين الذين بطمس الله على بصائرهم هي من علم بطونهم، وما ادراك
 ما علم بطونهم، وما رأت الحكماء احدا قط جهل حقيقة معنى الحياة الا وجدوا هذه الحقيقة في طئنه ،
 ولذلك قالوا من كانت همته ما يدخل جوفه كانت قيمته ما يخرج منه ^(١))
 واسمعه يتحدث عن تكالب الانسان لا شباع شهواته قال (ايها المغرور ما اراك الا دانيا في طلب الحياة
 حتى تفقد ما من شدة الطلب فلا تكاد تستوضح ما هي باباك وابابها لا تأخذ معنى الحياة من نفسك
 ان لنفسك اغراضا حية تريد ان تكون هي الحياة، ولا من الناس ان فيهم اغراض نفسك ولا من مدة عمرك فانظروا
 لا تبلغ طرفة واحدة من عين التاريخ . . . ولكن اعد نظرا على ما وراءك وخذ معنى الحياة من صفة
 الآق سنة عرفت من تاريخ الحياة نفسها ثم من عمر الارض كله ثم من تاريخ الموت المجهول اوله وآخره ؛
 خذ معنى الحياة من هذه الافواه الصامتة التي لا تكذب لانها تحفظ الحقيقة الانسانية من هذه القبور
 التي تملأ الرحب من هذه الهاوية التي ينصب فيها فراغ الحياة دائل دائما لان تحتها مجرى الطيار المياد
 المتدفق من النهاية الارضية المعرفة الى الابد الذي لا تعرف له نهاية، خذها من هذه الكلمة التي
 وضعتها السماء للارض هذه الكلمة الازلية التي تحقق الاخاء والمساواة في الناس جميعا بلا شذوذ ولا ^(٢)
 تباين، الكلمة التي يكون القبر زاوية في معناها كلمة الله عز وجل في قوله تعالى "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك"
 وانظر الى هذا المقطع الجميل عن الموت والحياة

(١) كتاب السالكين وجميع ١٢٥

(٢) " " " " ١٥٥

وسمى اعتبرنا الشقاء الانساني وما يحترض الانسان في طريق الحياة راينا الحق الذي لامرته فيه ان هذا الانسان حين تمسود راحلته الى القبر لا يكون قد انتهى من الحياة كما يقال ولكنه ينتهي حينئذ من الموت . . . وذا نحن اعتبرنا هذا الوجود الفاضحة بما وراءه من عالم الغيب راينا كل صنف من الموجودات كأنه لغة متميزة بخصائصها اوجدها الله في هذه الحياة لتدل عليه سبحانه بنوع من الدلالة او ضرب من المجاز . فابنما مد الانسان عينيه رأى لفظا كالاشارة او اشارة كاللفظ ولكن قتل الانسان ما اكفره فان مالا يريد ان يفهمه ^{لنذكر} ~~لنذكر~~ ويشترك به اكثر مما فهمه لينساء . ولقد رأى ان ما فوق الارض هو ما تحت السماء لا يدل به باشارة واحدة على انه خالد في هذه الحياة الدنيا (11)

Glenn

وانظر كيف **يقضي** الشك ويرى الايمان فيه قال (تباركت ربنا وتعاليت ان الشك فبك لهو اليقين على طريقة
والايمان بك هو اليقين على طريقة اخرى. المقعد لا يمضي والاعمى لا يمدو والضعيف لا يسبق العداء .
فاذا انكر المقعد على من براء يمضي والاعمى على من يبصره يمدو والضعيف على من يعرفه قد سبق ،

فما ذلك من انكار العين ولا من مكابرة النفس وانما ذاك رأي منظور فيه الى حظ رجل مهملة او قدم

او عظم و اهن، من نم لن بكون في الناس ملحد الا ^{فوقه} ^{طائفه} وحيه طبعه او اخلاقه او حوادث دنياه

جهة مريضة بنكسر عندها الرأي ويتلى بها الحس فهي توجهه وتصرفه منظورا فيه الى شعور

بعينه. وقد ينتحر الرجل من اعراض امراضه فنمذا يقول ان النفس الانسانية في وزن قبة. فاما المحدث بغير

علة فهذا لا يوجد، اب ولا تضعه لم انه يجب ان تكون طباعه له وعوده ميراثه منه وحده حتى يصدق رحمه

انه الحد للبرهان وحده، فما يجحد الجاحد الا ليجعل نفسه في الإلرافافية من الامر والنهي ويخرج

بها من حكم الضرورة؛ والابحان كله ضرورات مسلحة الحكم على ما بين المؤمن ونفسه وما بين المؤمن والناس

وَمَا كَانَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَرَبِّهِ حَتَّى كَانَ فِيهِ شَيْءٌ بَلَدُهُ بِالْجَمْرِ فَمَا يَسْتَرْجِعُ مِنْ لَذَّةِ الْإِقْدَرِ مَا يَجْمَعُ لِيَحْتَبِلَ

الذقة بعد ها ... يا الهي انما يحبك المومنون ويكابدون في رضاك على مقدار منك لا منهم فانك تغف

قلب المؤمن بضرورات كشمع البراكين، وتضرب روحه من مصائبه بسلسلة جبال مفتولة وتتركه في الأرض يمشى

كاننا خر عليه سقف العالم^(٢٠)،) وانما محل الايمان من اهله فوق محل الحكومة من تحكمهم فهو

الامر والهي بلبغة الدم والعصب، وهذه الغايات التي تتألف من اجلها الحكومات كامن الناس ونظامهم وحوتهم

وسعادتهم هي انفسها محكومة بمسائل تأتي من وراءها في طبائع الناس وادابهم ومعاشهم ومعالجهم،

فان لم تكن في النفوس من الدين اصول تامر وتحكم وفي الطباع من اليقين اصول تسنجيب وتخضع رجعت

الحكومة في الناس اداة "سلطة" لا تخفى كبيره فناء في الخبر والنشر، ان بحتلج "الخبر ابدًا" الى قوتها

تحبيه وبحتمال الشر ابداء على قوتها تستنفذه، ومتى لم يكن الخير الا بالقوة فاحتياجه اليها شر،
ومتى لم يكف الشر عن القوة فاحتياله عليها شر مثله؛ فاذا تضعفت من الادبان هذه الدعائم الراسية
وغرط من الانسانية هذا الفارط الذي ليس في الارض كفاءه ^{منه} لم تجد حسنة في حكومة من الحكومات
الا معها من طبيعتها سيئة، ولم تجد سيئة الا هي سيئتان، فلن تكون الحياة حينئذ الا تعقيدا اشد
التعقيد من طغيان القادرين عليها بالمال والغنى ومن حقد ^{المجبر} المعاجزين عنها بالفقر والحاجة ^(١١)
هذا بعض الراجعي المتامل في شؤون الحياة. وجدير بنا ان ندرس بانتظام بعض خطوطه الفكرية
الرئيسية كما تظهر منتثرة في معظم كتبه

= |

نزعته الایمانية - كان الراجعي عجبيا في ايمانه بالغيب، وتناجى الارواح، وتنادى الموتى والاحياء،
وكان يؤمن بالسحر والعرافة وكثيرا ما كنت تسمع منه «حدثني نفسي . . . التي الي . . . هتف
بي هاتفا» وكان يعني ما يقول ^(١٢) علي حقيقته
وكتاباته ثورات عنيفة في اكثرها على العقليين كانه سخر للدفاع عن الدين لا سيما القرآن بحصية
كاهن تخرج كالمفجرات احيانا من شق قلمه ^{وعنونه} الراجعي وطه حسين مشهورة في ادبنا الحديث،
فهو تقم بالواقع على الشك الديكارتي الذي حاول الثاني بنه في الشرق بعد رجوعه من فرنسا
ومالك الا ان تقراء (تحت راية القرآن) لترى (صورة جهنة للراجعي الناصر المغبط الحق
ياحظ المعينين كانا بطالب بدم مطلول مزبد الشدقين كالجمل الهائج متفخخ الالف كانا يشم ريح
الدم سريع الوثوب كان خصما قترامى له بعد ما ^{وطر} طويلا فهو يخشى ان يفر . . .)
ادب الراجعي ادب وجداني حاول في معظمه ان يثبت كون الايمان فوق العقل (لان الالهام
اقدم منه في الوجود واطهر منه اثرا وواضح منه سنة وما بالعقل ييني الطائر عشه ويقطع
بعض الطير الى وطنه من اقصي الارض او بجي * من غايته، ولا بالعقل يصنع النمل ما يصنع
وياتي النحل ما ياتيه من دقائق الهندسة الى امثال لذلك كثيرة . . . وجه ان الالهام طبقة فوق
العقل؛ ولهذا كان فوق الارادة ايضا، وهو محدود في الانسان والحيوان جميعا؛ ^{اما} هذا (اي
الحيوان) فلا يتصرف فيه ولا يتصرف به؛ وهذا لا يكون ابدا الا كما هو ولا يحظى الارادة المطلقة
لانها دون الالهام؛ واما ذلك (اي الانسان) فلا يلقاه الا في احوال شاذة من احوال النفس؛
وهذا لا يكون ابدا غير من هو، ولا يسلب الارادة لان الالهام فوقها ^(١٤) ولو
ذلك دليل صاطع على ايمان الراجعي بقوة الالهام، فهو يركز شطحات القلب فوق ^{ولو} وضع
الادراك العقلي. ولكن ادبه لا يخلو من وثقات يمجده فيها العقل بمثل قوله *

(٣) سعيد القريانة ١٢٢

(٤) احماد القزآنه وده ٢٨٢

الانسان حيوان لولا العقل، فلما ^{انضم} انخفض لشهواته العقل صار انسانا لاحد له في الحيوانية فهو من هذه الجهة لا انسان ولا حيوان؛ وان كان الشيطان مطرودا من رحمة الله فخير ما يقال في هذا الانسان انه شيطان فيه موضع للرحمة ... ولقد خلق الله هذه الحواس ولا ^{صراط} جعل لها الا العقل بحكم ^{تدبيره} تعظيمها، ويتولى تسديدها، ويستعين في امرها بكل على كل، ومن ثم يستقيم من هذا الانسلاخ شيء معقول ويصبح قد ضربت عليه الحدود لا يتمداها ووسعت ^{له} دائرته في الانسانية لا يجاوز ^(١١) ٠٠

غير ان النعمة الالهية هي ^{الغالبية} الغلبة في ادبه، واذا قال حسنا في العقل فما ذلك الا كرم الكرام لا يجوز لنا ان نتخذ كتابه رئيسي في حياته الفكرية . ولا بد لنا في هذا الموقف من الرجوع الى حياة الراجعي الخاصة لنرى كيف نشأت هذه النعمة الدينية فيه ...

نشأة الدينية = لاسرته ثقافة يجوز لنا ان نسبها (ثقافة تقليدية) تطبع افرادها منذ ولادتهم بطابع الدين وتجعل كل واحد منها خلفا لسلفه الراحل، وقد ^{كلم} القرآن المادة الاولى في هذه العائلة حيث /نشأ/ الراجعي فاستخرج الى ابيه اول ما استمع تعاليم الدين وحفظ شيئا من القرآن وهي كبريا من اخبار السلف فلم يدخل المدرسة الا بعد ان جاوز العاشرة بقليل او اثنتي عشرة ^(١٢) . . . ولم يتلق لغة الاجنبية الا القليل من الفرنسية، ^{لذلك} لم تزل ثقافته عربية صرفة دون ان يفسدها دخيل تصطبغ به مما ساعده على البقاء نسخة اصلية ناصعة لا يعلوها غبار ثقافة غريبة ولا تشوها شائبة . وذلك وعلى اخبار الاقدمين في مكتبة ابيه الحاوية على اهم الكتب العربية القديمة والحديثة . وهكذا تتلمذ في الادب على يد الجاحظ وابن المقفع وابي الفرج الاصبهاني وفي الدين على القرآن والتصوفين امثال الحلج فتشبع من جوهر حتى اصبح يرى ما يروونه ويفكر كما يفكرون، يكتب كما يكتبون ويعاشر ناسا هم ناسهم الى ان صار قطعة منهم او صاروا في صميم كيانه الادبي والديني، وقد تكلم الراجعي ذاته عن هذا الاثر التربوي الذي تلقاه عن ابيه قال ...

(كنت في العاشرة من سني وقد جمعت القرآن كله حفظا وجودته باحكام القراءة ونحن يومئذ في مدينة (دمنهور) عاصمة البحيرة، وكان ابي رحمه الله كبير القضاة الشرعيين في هذا الاقليم ومن عادته انه كان يعتكف كل سنة في احد المساجد عشرة ايام الاخيرة من شهر رمضان يدخل المسجد فلا يبرحه الا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم، فهناك يتأمل ويتعبد ويتحل بمعناه الحق وينظر

(١١) كتاب الامم كين وجه ١٢٧

(١٢) سعيد العربية في حياته ١١١١ وجه ١٦

النور السماوي الانساني فاذا هو بتلاؤله في روحه تحت الفجر ... لانسي ابدًا تلك الساعة ونحن في
 جوامع المسجد والقناديل معلقة كالنجم في مناطها من الفلك، وتلك السج ترتعش فيها ارتعاش
 خواطر الحب ^{وتنه} والفرح بالسور عليهم وقار ارواحهم، ومن حول كل انسان هكذا قلبه وقد استبهمت الاشياء
 في نظر العين ليلبسها الاحباس الروحاني في النفس فيكون لكل شيء معنى الذي هو منه ومعناه الذي ليس
 منه، فيخلق فيه الجمال الشمعي كما يخلق للنظر التخييل . لا انسي ابدًا تلك الساعة وقد اتبعت في جو
 المسجد صوت غرد رخيم يشق سدقة الليل فيمثل رنين الجرس تحت الافق العالي وهو يرتل هذه
 الآيات من آخر سورة النحل ادع الى سبيل ربك للحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسان
 ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين . وان عاقبتهم ^{فما شئرا} فاعاقبوا ^{عاقبتهم} بمثل ما عاقبتم به؛ ولئن
 صبرتم لهو خبير للصابرين، واصبر وما صبرك الا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تك في ضيق مما يمكرون .
 ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» . . . وكان هذا القاري بملك صوته اتم ما يملك ذو الصوت
 المطرب، فكان يتصرف به احلى ما يتصرف القري وهو ^{شروع في انغام} ينغمس في انغامه وبلغ في التطرب كل مبلغ
 بقدر عليه القادر حتى لا تفسر اللذة الموسيقية بابداع ما نسرهما هذا الصوت وما كان الا كالليليل
 هزته الطيبة باسلوها في جمال القمر فاهتز بجاوها باسلوه في جمال التخريد . . . كان صوته على
 ترتب عجب في نعماته بجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة ويضطرب اضطرابا روحانيا كالحنن اعتراه الفج
 على فجأة يصبح الصيحة تترجح في الجو وفي النفس، وتترد في المكان وفي القلب ويحول بها الكلام الا لهي
 الى شيء حقيقي يلمس الروح فيرفض عليها بمثل الندى، فاذا هي ترق رقبنا واذا هي كالزهرة التي
 مسحها الطل . . . وسمعنا القران غضا طريا كابل ما نزل بها الوحي فكان هذا الصوت الجميل
 يدور في النفس كانه بعض السر الذي ^{يؤثر} في نظام العالم، وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة
 يتناول الماء ويكرملها ^{مفك} . واهتز المكان والزمان كأننا نجلى المتكلم سبحانه وتعالى في كلامه،
 ومدا الفجر كانه واقف يستاذن الله ان يضيء من هذا النور! وكنا نسمع قران الفجر وكأننا محبت
 الدنيا التي في الخارج من المسجد ومطل باطلها فلم يبقى على الارض الا الانسانية الطاهرة
 ومكان العبادة، وهذه هي معجزة الروح متى كان الانسان في لذة روحه مرتفعا على طبيعته الارضية .
 اما الطفل الذي كان في يوشع فكاننا نضيء بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويودبها الى الرجل
 الذي يجيء فيه من بعد؛ فانا في كل حالة اخضع لهذا الصوت ادع الى سبيل ربك، وانا في كل
 ضائقة اخضع لهذا الصوت واصبر وما صبرك الا بالله . . .

ضائقة

هذه لحظة سريعة من سيرة الراجعي نرى فيها ذلك الطابع الذي تركه فيه نشأته الدينية وقد قام على حراستها والده الشيخ. ثم ظلت هذه القوة الابائية متمسكة به في اشد مواقفه الصعبة كما حصل له ذلك في بعض المآزق الخرامية مثلا فقد (وقع للمجاهدين في هواه ما يقع للمحبين من ضرورات الحب، ودافع نفسه ما دافع، فلم يجد له طاقة على المقاومة واحتال على الخلاص فما اجدته الحيلة الا هما على هم. وكان حبه اقوى منه ولكن دينه واخلاقه كانت اقوى من حبه وقال لنفسه ما انا وهذا الحدث الذي يعترض طريقي ويغلبني على ارادتي. ان في بيتي امرأة احبها وتحبني. والحب عند الراجعي لا يابى الشركة وان لها علي حقا ليس منه ان يكون علي لغبرها نظرة او ابتسامة الا ان تأذن لي. ماذا يكون من امري وامرها غذا امام الله حين يطلب كل ذي حصة من حقها. تلك وقفة من موقف الراجعي الحسية وقد اطبقت عليه فيها كاشنة العاطفة تشد على خنائه. ومع ذلك كان الدين والاخلاق فوق عواطف القلب وهو النفس وهو القائل ...

قلبي يحب وانما اخلاقه فيه ودينه .

حبه للمرأة = والراجعي في حبه للمرأة روحاني الميل كما تظهره اقواله. فهو لا ياخذ من المرأة الا تلك الفاحية التي توصل الانسان الى عتبة الدين فاسمعه يقول (والطبيعة نفسها تهيب الانسان للدين باسلوب غريب هو هذا الحب الذي يخلق فطرة على انواع مختلفة متعددة حتى لا يخلو منه احد فلا معدل عنه ولا محيص وانما هو في مظهره - ~~الذي~~ ايها كان - دربة للنفس الانسانية تصعد به درجات من الفضائل في ~~المحبة~~ ~~ايها~~ ~~الايضا~~ كالاخلاص والابتناء والاتصال الفكري والانبعاث الروحي والشرق الخيالي ونحوها ما هو في الحقيقة ايجاد للحياة النفسية في اعماله ونفيس بالقوة الروحية على مظاهر المادة لاحداث الملامسة بين الارواح والاشياء والترايط بين الجاذب والمجذب. وكل ذلك تهية للدين وحله في النفس ليكون قائما على اساسه في الطبيعة. فالحب دين على اسلوب خاص ضيق ولذلك يشتد فيه التعصب كما يقع في الدين من ~~المعصية~~ ~~المؤمن~~ به على وتيرة واحدة اذ لا يرضى بغيره في القلب في هذا ولا هذا غير رأي واحد^(١). وانظر اليه كيف يحدد الحب قائلا ~~هل~~ ~~هل~~ الحب الا روحانية ترجع بنا الى ما وراء انفسنا لتضيف بعض المجهول الى وجودنا وتزيد لنا نعم الدنيا والامها ما لا يزيد شي آخر غير الحب. لو سألني من هو العاشق لاجبتك انه لن يكون عاشقا الا من احس انه قدف به في الابتسامات والنظرات بكرة واحدة الى جهنم ~~السموات~~ ~~فيشعر~~ ان نعيمه اهناء من نعيم الارض وان عذابه اشد من عذابها. وكانه اذ يختم لم يحل

(١) سعيد السريان: حياة الراجعي رحمه ٤٧

(٢) اوراق المورد رحمه ٩٦

اسباب النعيم بل اسباب الخلود في الجنة، وان يتالم لم يجد مادة الالم بل مادة نارية على قلبه^(١) . . . وقال ايضا (والحب الروحي الصحيح انما هو كالطفولة لا تعرف وجه الفتى بل الا شبيها بوجه الفتاة فليس فيه تذكير وثابت بل حالة متشابهة كاخضر الا الشجر تبعت عليها الحياة حين لا يجي* الحس فيها الا من جهة القلب . وما ارى الشجرة حين تخضر الا قد نبئت فيها كلمة من قدرة الله ذات حروف كثيرة ؛ ولا الزهرة حين تتعطر الا قد لاح في جمالها معنى بديع من حكمة الكلمة الالهية، ولا الانسان حين يمشق عشقا صحبها كما تروح الشجرة وتنظر الا قد صار قلبه ككها كتابا من تلك الفقه النقية الجميلة المعطرة^(٢) . . .

وهنما اراد ان يصف حبه لها قال : اقول لك احببتها لا كهذا الحب الذي تراه وتسمع به في رواية تبندي^(٣) والشهري^(٤) في جرثمين من رجل وامرأة ؛ ولا كالحب الذي يولفه الكتاب والشعرا حين يجمعون عشرين معنى في كلمة او برسلون عشرين كلمة لمعنى ولا كالحب الذي يباع ويشترى فتأخذ منه بالدينار اكثر ما تأخذ بالدرهم اجوبه^(٥) ولا كالذي تجبه وانت من الاشراف والنور كزجاجة الخمر فيعيدك وانت من الظلمة والسواد كزجاجة الحب احببتها ولا كالحب نفسه . منذا الذي قال = (من يهلك نفسه من اجلي يجدها) اظنه المسح وقد كانت هي تتمثل بها كثيرا ؛ ولكن هذه الكلمة بعد كلمة الحياة الازلية التي تقول للناس حين يشكون فيها موتوا لتعرفوا، كلمة الجمال الاعلى التي يقول للشمس حين تصفر اغربي لتصبحي بيضاء حية في النهار، كلمة الحب الصحيح الذي يقول للمبتلى به = تعذب لتعرف كيف تتخيل السعادة ~~وتتأملها~~ . كذلك تراني لا احب الا لثلاث = لاعرف واحس واتخيل ولا اهلك بالحب الا لثلاث = لا وجد في نفسي وابقى في نفسي واهم نفسي الى نفسي^(٦) ~~وتتزوج~~ ^{وتتزوج} الصالح انما يبنى حسب اعتقاده لا على اسس الدين قال (ومتى كان الدين بين كل زوج وزوجته فهما مختلفا وتدابرا وتعتدت نفسيهما فان كل عقدة لا تجي الا وسعها طريقة حلها . ولن تشاد الدين احد الا غلبه وهو البسر والمساهمة والمهرجة والمنفرة ولين القلب وخشية الله وهو العهد والوفاء والكرم والمواخاة والانسانية وهو اتساع الذات وارتفاعها فوق كل ما تكون به منحطة او ضيقة . . .)

شرقيته وموقفه من الغرب = والرافعي شرقي قبل كل شيء . وشرقيته ولبده نوعته الدينية الى حد ما . فهو لا يرى في الغرب الا تمدنا فاسدا وحياة شك ومادة . وهجمات على مدنية

(١) وهي انقام الجزاء والرد ١٥٧

(٢) اوراق الورود ٧١

(٣) ركن الاعزاز ٧١

الدين الاسلامي اساس كل شي* في نظره. وحق وقد دفع به هذا الايمان الى محاولة قلم بها ولكنها فاشلة حسب ظننا لدرس الاداب العربية على ^{نحو} القرآن وفهم المدينة الغربية ايضا على اساس الدين الاسلامي. ولما كان موقفنا هنا تحليل اهم عناصر ادبه الابائي فلا نرى مانعا من ان نعرض عرضا لا غير نوعة معاكسة لنزعة ^{نفس} الرافعي الدينية ارتطمت بها وكان ما كان بينهما من مجادلات وهجاء وهي نوعة الدكتور طه حسين. ولاجل ذلك ^{كثير} نكتفي فقط بالمعروض سريعا على تلك الروح التي ادخلها معه الى الشرق صاحب (الايام) وهل بموجبها لدرس الآداب العربية. وهكذا تبرز لنا بوضوح بعض تلك البواعث التي دفعت الرافعي الى ان يشن غارته العنيفة على طه حسين بمقالات جمعت فيما بعد باسم (تحت راية القرآن)

طه حسين = ساقف فقط عند حد ذكر بعض الشواهد من ^{كثير} طه حسين نرى اتجاهه الفكري المعاكس تعلم المعاكسة لنزعة مصطفى صادق الرافعي . قال لم ار يد ان يظهر الادب بهذه الحرية ^{التي} تمكنه من ان يدرس لنفسه ^{كثير} التي تمكنه من ان يكون غاية لا وسيلة، فالادب عندنا وسيلة الى الآن، او قل ان الادب عند الذين يعلمونه ويحتكرونه وسيلة منذ كان عصر الجمود العقلي والسياسي، بل قل ان اللغة كلها وما يتصل بها من علم واداب وفنون لا ^{يوجد} تزال عندنا وسيلة لا تدرس لنفسها وانما تدرس من حيث هي ^{كثير} الى تحقيق غرض آخر. وهي من هذه الناحية مقدسة وهي من هذه الناحية مبتذلة . وقد يكون من الغريب ان تكون اللغة والاداب مقدسة ومبتذلة في وقت واحد، ولكنها في حقيقة الامر مقدسة ومبتذلة = مقدسة لانها لغة القرآن والدين وهي تدرس في رأى اصحاب الادب الكبير من حيث هي وسيلة الى فهم القرآن والدين، ومبتذلة لانها لا تدرس في نفسها ولان درسها الاضافي ولان الاستغناء عنها قد يكون ميسورا ^{كثير} لو امكن ان يفهم القرآن والحديث بدونهما، ولان الفقه خير منها واشرف، ولان التوحيد خير منها ^{كثير} وان هذه

المعلم الدينية تدرس لنفسها، تدرس لان الله اخذ الناس بدرسها والعلم بها، تدرس لانها تحقق منافع الناس في الدنيا والآخرة، اللغة والاداب اذن مقدسة ومبتذلة وهي من حيث هي مقدسة لا تستطيع ان تخضع للبحث العلمي الصحيح. وكيف تريد ان تخضعها للبحث العلمي الصحيح والبحث العلمي الصحيح لمن قد يستلزم انتقاد النقد والتكذيب والانتكار والشك على

اقل تقدير. وما رايك في الذي يعرض الاشياء المقدسة لمثل هذه الاعراض! وهي من حيث هي
مبتذلة لا تستطيع ايضا ان تخضع للبحث العلمي الحديث، ومن ذا الذي يعنى بالادب
واللغة وعلومهما وهي وسائل ليس خيرا من ذلك ان يعنى ^{بالغايات} بالصفات. ومن ذا الذي يستطيع ان
باللغة والادب وعلومهما وهي قشور ليس خيرا من ذلك ان يعنى باللهجات. ولى هذا النحو

يعنى

يصبح الدرس العلمي للغة والادب خطرا من جهة، ومزدرى مهينا من جهة اخرى. وكيف تريد
ان يدرس علم درسا ينشئه وينميه ويمككه من الازهار والثمار وهو خطر ^{مهم} في وقت واحد؟
اظن انك استطعت الآن ان توافقني على ان الحرية بهذا المعنى شرط اساسي لنشأة التاريخ
الادبي في لغتنا العربية. فانا اريد ان ادرس تاريخ الادب في حرية وشرف كما يدرس صاحب
العلم الطبيعي علم الحيوان والنبات. لا اخشى في هذا الدرس اي سلطان وانا اريد ان يكون
شأن اللغة والآداب شأن العلم التي ظفرت بحريتها واستقلت بها من قبل والتي اعترفت لها
كل السلطات بحققها في الحرية والاستقلال، انتظن ان في نصر مثلا سلطة تستطيع ان تعرض
لكلية الطب او كلية العلم وما يدرس فيهما من مذاهب التطور ^{والنشوء} والارتقاء وما الى ذلك.
كلا لان هذه العلم قد استقلت وحملت السلطات التي في العالم كله على ان تعترف
لها بالاستقلال، لان هذه العلم تدرس لنفسها. وقد ^{انغم} انتم الناس جميعا على ان يعترفوا لها
بالها تدرس من حيث هي غايات لا وسائل وقد وصل الادب في اوربا الان الى هذه المنزلة
ووصل بعد جهد وشقة ولم يصل الا في هذا العصر الاخير ولكنه قد وصل بالفعل واصبح
يدرس لنفسه واصبح يستمتع من الحرية بمثل ما تستمتع بالادب الطبعة والكمياء واصبح خصومه
لا يحاربونه بالسلاح الاداري او ^{القضائي} كما كانوا يفعلون من قبل وانما يحاربونه بالسلاح
العلمي الادبي الخالص فيقيمون الحجة ويتجادلون بما يلائم مزاجهم من قوة اضعف ومن لين
او عنف ...

(الادب في حاجة اذن الى هذه الحرية، هو في حاجة ^{للحرية} الى الا يعتبر علما دينيا ولا ي
وسيلة ^{مطلبة} دينية، وهو في حاجة الى ان يتحرر من هذا التقديس، هو في حاجة الى ان يكون كغيره
من العلم قادرا على ان يخضع للبحث والنقد والتحليل والشك والرفض والانتكار، لان هذه الاشياء كلها
هي الاشياء الخصبة حقا. واللغة العربية في حاجة الى ان تتحلل من التقديس، هي في حاجة الى
ان تخضع لعمل الباحثين كما تخضع المادة لتجارب العلماء. يم يتحرر الادب من هذه التسمية

وهم تتحلل اللغة من هذا التقديس يستقيم الادب يستقيم الادب حقا ويظهر حقا ويوتي ثمراتهما
 لذيذا حقا. انذكر القرون الوسطى حين لم يكن يباح للناس تشريح الجسم الانساني لانه كان مقدسا لا
 ينبغي ان يسري ما بهينه؟ ثم انذكر ماذا كان تأثير ذلك في علم الطب وفي فنون التصوير والتشكيل؟ ثم
 انذكر كيف ابيع للناس ان يدرسوا جسم الانسان بالتشريح ويخضموه لهذا الدرس الدقيق. انذكر ماذا
 احدث ذلك من الاثر في العلم الطبيعية وفي الفنون الطبية، وكيف نشأ عن ذلك ان استقامت فنون التصوير
 والتشكيل استقامة صحيحة منتجة؟ هذا بعينه شأن اللغة والادب؛ لن توجد العلم اللغوية الادبية
 ولن تستقيم فنون الادب الا يوم ~~تتحلل~~ تتحلل اللغة والادب من التقديس ويباح لنا ان نخضعها للبحث
 كما تخضع المادة لتجارب العلماء. ولكن هذه الحرية التي نطلبها للادب لن تنال لاننا ننشأها،
 فنحن نستطيع ان نتفق، وما كان الامل وحده منتجا، وما كان بكيان تمنى لتحقيق امانيك. اننا ننال
 هذه الحرية يوم نأخذها بانفسنا لا ننتظر ان تمنحنا اياها سلطة ما، فقد اراد الله ان تكون هذه الحرية
 حقا للعلم، وقد اراد الله ان تكون مصر بلدا متحضرا يتمتع بالحرية في ظل الدستور والقانون^(١)
 حياتنا المادية اوروبية خالصة في الطبقات الراقية. وهي في الطبقات الاخرى تختلف قريبا ومعدا
 من الحياة اوروبية باختلاف قدرة ~~الاشخاص~~ الافراد والجماعات وحظوظهم من الثروة وسعة ذات اليد.
 ومعنى هذا ان المثل الاعلى للمصرى في حياته المادية انما هو المثل الاعلى للاروبي في حياته المادية.
 نتخذ من مرافق الحياة وادواتها ما يتخذون، ~~ما يتخذون~~ ونتخذ من زينة الحياة ومظاهرها ما
 يتخذون، نفعل ذلك عن علم به وتعمد له او نفعل ذلك عن غير علم ~~وهو~~ على غير عمد، ولكننا
 ماضون فيه على كل حال وليس في الارض قوة تستطيع ان تردنا عن ان نستمتع بالحياة على
 النحو الذي يستمتع بها عليه الاروبيون. مدت اوربا الطرق لحد يد حواسلاك التلفزيون والتلفون،
 فمددناها، وجلست اوربا الى الموائد واتخذت ما اتخذت من آنية الطعام وادواته واللوان
 وسمنها ^{وصنعها} صيغها. ثم تجاوزنا ذلك الى ما اصطنع ~~الاروبيون~~ الاروبيون لانفسهم من لباس،
 ثم تجاوزنا ذلك الى جميع الانحاء التي يحبا عليها الاروبيون فاصطنعناها لانفسنا غير متخيرين
 ولا محتاطين ولا مميزين بين ما يحسن منها وما لا يحسن، وما يلائم منها ^{ولا} لا يلائم. ونستطيع
 ان نقول ~~ان~~ ان مقياس رقي الافراد والجماعات في الحياة المادية مهما تختلف طبقات عندنا انما
 هو حفظنا من الاخذ باسباب الحياة المادية اوروبية. وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها

والوانها الأوروبية خالصة. نظام الحكم عندنا اوروبي خالص، نقلناه عن الاوروبيين نقلا في غير
 تحجج ولا تردد. واذا عينا انفسنا بشي* من هذه الناحية فاننا نعييها بالابطاط* في نقل ما
 عند الاوروبيين من نظم الحكم واشكال الحياة السياسية. وقد اضطرت حياتنا السياسية في
 هذا العصر الحديث ولا سيما في هذا القرن بين الحكم المطلق والحكم المقيد فلم يكن
 اضطرابها بين هذين النهجين من الحكم كما الفهما الشرق في القرون الوسطى، بمعنى ان
 نظم الحكم المطلق عندنا في العصر الحديث كان متأثرا بنظام الحكم المطلق في اوروبا قبل
 انتشار النظام الديمقراطي، وان نظام الحكم المقيد عندنا كان متأثرا بنظم الحكم المقيد في
 اوروبا ايضا. فالذين ارادوا ان يستبدوا بامور مصر في العصر الحديث كانوا يذهبون مذهب
 لويس الرابع عشر واشبابه اكثر ما كانوا يذهبون مذهب عبد الحميد وامثاله، والذين ارادوا
 ان يحكموا مصر حكما مقيدا بالعدل دون ان يشركوا الشعب معهم في الحكم كانوا يتخذون
 المذهب لحكمهم قيودا اوروبية لا شرقية . فهم قد انشأوا المحاكم الاهلية وشرعوا القوانين المدنية
 واستبقوا ذلك من النظم الاوروبية لا من النظم الاسلامية، وهم قد وضعوا النظم الادارية والمالية
 والاقتصادية وذهبوا في ذلك مذهب الاوروبيين، بل نقلوا ذلك نقلا عن الاوروبيين ولم يستمدوه
 مما كان مألوفاً عند ملوك المسلمين وخلفائهم في القرون الوسطى . . . فجلس النظار او
 مجلس الوزراء ونظارات الحكومة او وزاراتها والمصالح المتصلة بهذه النظارات والوزارات كل ذلك
 اوروبي المصدر اوروبي الجوهر اوروبي الشكل يعرف منه المسلمون شيئا في القرون الوسطى، وقبل هذا
 العصر الحديث. وقد استبقيت اشياء من النظم الاسلامية المذهب القديمة لم يكن بد من استبقائها لانها
 تتصل بالدين من قريب او بعيد. ولكن كثيرا من التغيير والتبديل قد مسها حتى اصبحت
 شديدة التأثير بالنظم الاوروبية في شكلها على اقل تقدير. وقد يكون من النافع ومن الطريف ايضا
 ان يقارن بين محكماتنا الشرعية الان بعد ان تآثرت باصلاح الحديث وبين محاكمنا قبل
 ذلك حين لم تكن الا استمرارا للنظام الاسلامي القضائي القديم . . . واكبر الظن ان قضاة المسلمين
 القدماء لو انشروا في هذه الايام لانكروا من نظام المحاكم الشرعية شيئا كثيرا ولعلمهم ان ينكروا
 اكثر مما يعرفون! وقد استبقينا نظام الوفاق ولكننا لم نلبث ان انشأنا له وزارة وان ادراه على نحوها،
 اظن ان القدماء يعرفونه او يرضون عنه لو ردوا الى الحياة. ونحن مع ذلك ننكر وزارة الاوقاف
 ونراها مسروقة في التأخر مبطنة في التطور. بل هنا من ينكر شيئا غير قليل من نظام الوقف نفسه

فبريد الغاءه وتغييره لبلاد بين حياة الاسر وحاجات الاقتصاد الحديث . . . وقد استبقينا الازهر الشريف نفسه، ولكن ازمة الازهر الشريف متصلة منذ عهد اسماعيل او قبله ولم تنته بعد، وما اظنها ستنتهي اليوم او غدا ولكنها ستستمر صراعا بين القديم والحديث حتى تنتهي الى مستقر لها في يوم من الايام. وكل شيء بدل بل كل شيء ^{يبدل} يصبح بان الازهر مسرف في الاسراع نحو الحديث، ^{يتم} ان يتخفف من القديم ما ^{يؤيد} الى ذلك سبيلا . . . ولوان الله انشر علما الازهر الشريف الذين كانوا يعيشون في اول هذا العصر الحديث، واراهم ما انتهى اليه الازهر من التطور لرقبوا الى الله مخلصين في ان يردهم الى اجدانهم حتى لا يروا هذه الاحداث العظم. كل هذا يدل على اننا في هذا العصر الحديث نريد ان نصل باوروبا اتصالا يزداد قوة من يوم الى يوم حتى يصبح ^{جزءا} منها لفظا ومعنى وحقيقة وشكلا. ولى اننا لانجد في ذلك من المشقة والجهد ما كنا نجده لو ان العقل المصري مخالف في جوهره وطبيعته للعقل الاوروبي . . . ثم لم يقف امرنا عند هذا الحد فقد خطونا بعد الحرب الكبرى خطوات حاسمة ليس لها من امل في ان نرجع عنها ولا من سبيل الى هذا الرجوع. وما اشك في ان ككرة المصريين مستعدة لان تبدل المهج والنفوس وتضحي بالحياة والاموال في سبيل المحافظة على هذه الخطوات التي خطوناها ولى هذه الحقوق التي كسبناها. وابن المصري الذي يرضى بان ترجع مصر عن هذه الخطوات التي خطتها في سبيل ~~المحافظة على النظام الديمقراطي~~ وابن المصري الذي يطمش الى ان تعود مصر الى نظام الحكم يقوم على غير الحياة الدستورية النيابية. وهل الحياة الدستورية ^{النيابية} الحقيقية الا شيء اخذناه من اوروبا اخذا ونقلناه عنها نقلا فلم نكد نستمتع به طرفة عين حتى اتصل بحياتنا وامتنح بدماثنا واصبح حبه غدا لنفوسنا وقواما لعقولنا ونصرا من عناصر حداثتنا. واني لا تخيل داعيا بدعو المصريين الى ان يعودوا الى حياتهم القديمة التي ورثوها عن آباؤهم في عصر ^{الفراعنة} الفراعنة في عصر اليونان والرومان او في عصرها الاسلامي، اتخيل هذا الداعي واسأل نفسه: ان شاء الله يجد من يسمع له ويسرع الى اجابته او يبطىء في هذه الاجابة ولكنه يجب على كل حال؟ فلا ارى الا جوابا واحدا يتمثل امامي بل يمدد من اعماق نفسي: وهوان هذا الداعي ان وجد لم يلق بين المصريين الا من يسخر منه ويهزأ به. والذين نراهم في مصر محافظين ومسرعين في المحافظة ^{بهم} وبمخضين اشد البغض للتفريط في التراث القديم، هؤلاء انفسهم لن يرضوا بالرجوع الى العصور الاولى، ولن يستجيبوا لمن يدعوهم الى النظم العتيقة ان دعاهم اليها . . . ولم يقف امرنا عند هذا الحد بل نحن قد خطونا خطوات ابعد

جدا ما ذكرت. فالترنما امل اوروبا ان نذهب مذهبها في الحكم ونسير سيرتها في الادارة ونسلك طريقها في التشريع. الترنما هذا كله امام اوروبا ^{صلح} وعلى كان اجلا امضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة النفاة الامتيازات ^{ال} التزاما صريحا قاطعا امل العالم المتحضر باننا سنسير سيرة الاوربيين في الحكم والادارة والتشريع. فلو اننا همنا الان ان نعود ادراجنا وان نحيا النظم العتيقة لما وجدنا الى ذلك سبيلا، ولو لوجدنا اماننا عقابا لا نجتاز ولا نذل، عقابا نقيها نحن لاننا حراس على التقدم والرفق ^{عقابا} نقيها اوروبا لاننا عاهدانا على ان نسايرها ونجارها في طريق الحضارة الحديثة ... نحن اذن مدفوعون الى الحياة الحديثة دفعا عنيفا. تدفعنا اليها عقولنا وطبائعنا وامزجتنا التي لا تختلف في جوهرها قليلا ولا كثيرا منذ العهود القديمة جدا عن عقول الاوربيين وطبائعهم وامزجتهم. وتدفعنا اليها المعاهدات التي امضيناها وابرمناها والالتزامات التي قبلناها راضين بل بذلنا في سبيلها جهودا لا تحصى، وضحينا في سبيلها بالانفس الذكية والدماء الطاهرة ^{والنفوس} في سبيلها كرائم الاموال واحتملنا في سبيلها دروب المحن والالام ... والتعليم عندنا، على اي نحو قد افقنا صروحه ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي على النحو الاوربي الخالص ما في ذلك شك ولا نزاع. نحن نكون ابناؤنا في مدارسنا الاولى والثانية والعالية تكوينا اوروبيا لا تشوبه بهي شائبه. فلو ان عقول ابائنا واجدادنا كانت شرعية مخالفة في جوهرها وطبيعتها للعقل الاوربي فقد وضعنا في رؤوس ابائنا عقولا اوروبية في جوهرها وطبيعتها وفي مذاهب تفكيرها وانحاء حكمها على الاشياء. ولعمري اني لا تخيل داعيا بدعونا الى ان نعدل بمدارسنا ومعاهدنا عن الطريق الاوروبية التي سلكناها الى الطريق القديمة التي كان يسلكها ابائنا واجدادنا ...

فاني اني اتخيل داعيا بدعونا الى هذا فما ارى الا انا سلقاه ضاحكين منه مستهزئين بهوما ارى الا ان الازهرين وهم مستقر للحفاظة سيكونون اكثرنا منه ضحكا واعظنا به استهزاء على ان احملنا مذاهبنا القديمة في التعليم قد كانت هي المذاهب التي كان يذهبها الاوروبيون ويتخذونها اصولا لحياتهم العقلية في القرون الوسطى. واكبر الظن بل الحق الذي لا شك فيه انهم قد اخذوا عنا هذه المذاهب كما نأخذ نحن عنهم اليوم وساروا سيرتنا كما نسير نحن سيرتهم اليوم، فالفرق بيننا وبينهم في حقيقة الامر لا يتصل بالطبائع الامشية وجواهرها، وانما يتصل بالزمان ليس غير. بدأوا حياتهم الحديثة في القرن الخامس عشر واخرنا الترك العثمانيون، فبدأنا ^{حياتنا} الحديثة في القرن التاسع عشر. ولو ان الله لم يهتدعنا من الفتح العثماني لاستمر اتصالنا باوروبا ولشاركناها في نهضتها ولسلكنا معها الى الحياة الحديثة

نفس الطريق التي سلكها، ولتغير وجه العالم ولكان للحضارة الحديثة شأن غير شأنها الآن . على
ان الله قد اراد بنا خيرا يرغم الاحداث والخطوب. فقد بلغ العالم من الرقي طورا يمكننا من ان
نبلغ في عصر قصير ما انفق الاوروبيون في ^{سنوات} عشرات السنين بل مئاتها. فويل لنا اذا لم نغتفر هذه
الفرصة ولم ننتفع بهذا التوفيق... (١)

هذا هو صاحب الايام في ايام ~~حجته~~ ^{للمنوعاته} الفكرية. فهو ذو ميل شكي والرافعي ايماني الاتجاه
مسلم قبل كل شيء. الاول مع الغرب والثاني مع الشرق نعتان متباينتان. فكان ~~بما~~ كان بينهما من اخذ
ورد في خصومة ~~مهمومة~~ ^{شهريرة} كادت تؤدي الى بقلب حكومة. فقد اثارنا سخبا لا حول شخصين فحسب بل
حول مبدئين من التفكير واكاد اقول حول ~~شيئين~~ ^{رأيتين}. وقد خرج ^{الرافعي} منتصرا في حينه مكسورا فيما بعد،
وخرج طه حسين مكسورا في حينه منتصرا فيما بعد. ان الزمان لن يعترف للرافعي بعبقريته في هذا
المحور. ولا يهمني ان اعرف هنا ~~هل~~ ^{اذا} كانت مزاعم طه حسين الشعر الجاهلي في صحبة ام لا.
فقد تكون على حق وقد لا تكون. ولكن ~~الحقا~~ الذي ارتكبه الرافعي كونه لم يحترم ~~حجة~~ ^{حجة} خيرة القول والفكر،
لم يحترم نوعة الشك، وهي من اهم نوعات العقل ودورها لا ايمان ~~بها~~، كونه لم ينظر الى المدنية
الغربية بعين التجرد فانبهت عليه حقائقها الخالدة ونواميسها النابتة. لم يمر اذنا صاغية الى ما
تشعره محكمة العقول من رصانة في النقد وحرية في التفكير ولم في الابحاث...

القضاء والقدر = من اهم نتائج نوعة الرافعي الايمانية الرضخ لمشبهة القضاء والقدر، واقتبال
الحياة دون تدمير، وهي نوعة دينية ^{بينة} ~~بينة~~ قال = (ما اتينا الى هذه الدنيا الا ليمتل كل واحد منا
فعلا من معاني الشقاء الانساني في تلك الثياب التي هي ملك لصاحب المسح لا نخلعها ونلبسها
بل بخلعنا بعضها ليلبسنا بعضها الاخر. فلنسا نبتدع ولكن يلقي علينا وما نحن بمختارين ولكننا
نحتذي، ^{والرواية} ~~والرواية~~ موضوعة تامة ~~للمر~~ قبل مثليها ~~ولا~~ ^{ولا} وضعها ذلك القلم الاعلى الذي كتب مقادير كل
شيء كان او يكون حتى تمحي من صفحة الارض هذه الاحرف السوداء المتحركة والساكدة...

(والمسئلة الانسانية الكبرى ان كل انسان يريد ان يكون بطل الرواية ومثلها البكر حتى ذلك الشخص
الذي جيء به لتنزل عليه اللعنة في سياقها، غير ان الرواية مفصلة من قبل وباتني فصل اللعنة كما هو باطرافه
وحواشيه واسبابه ونتاجه فينصب على منله جملة واحدة على وجه لا يحس ولا يرى ولا يدفع كما ^{يلسه} ~~يلسه~~
النم فاذا هو يقتل فيه قتلا واذا رجل على لعين الناس باللعنة حال واللعنة مرتحل...)

الحج

(النم والقدر والموت كالشيء الواحد او ثلاثتها اجزاء لشيء واحد، فالنم غفلة تخرج النعمة هنيئة من الحياة وهو فيها على حالة اخرى، والموت غفلة تخرجه من الحياة كلها الى حالة اخرى، والقدر منزلة بين المنزلتين يقع هبتا على اهل السعادة باسلوب النم وبجي لا اهل الشقاء عتيفا في اسلوب الموت ولن يجلب شيئا او يدفع عن نفسه شيئا من هذه الثلاثة الا الذي لم يخلط على الارض ذلك الذي يستطيع ان يفتح عينيه على الليل والنهار فلا ينلم، او يحفظ نفسه على الصغر والكبر فلا يموت، او يضرب ببديده على مدار الفلك فيمسكه ما شاء او يرسله. كذا الى هذه الحياة غير مخيرين ونذ هبغير مخيرين ان طوها وان كرها، فعد يدك بالرضا والمتابعة للاقدار او انزعها ان شئت فانك على الطاعة ما انت على الكره وعلى الرضا بما انت على الغضب، ولن تعرف في مذاهب القدر اذا انت اقبلت او ادرت اي وجهيك هو الوجه فقد تكون مقبلا والمنفعة من ورائك او منبرا والمنفعة امامك، والفقر مع ذلك يربي بك في الجنتين ايها شاء وحرى بما يوقن انه لم يولد بذاته ان لا يشك في انه لم يولد لذاته وانما هي الغاية المتكدرة المتعينة فلا الخلق يتركوك لنفسك ولا الخالق تارك لك نفسك لك ومن هنا نرى عند الراعي نزعة ايتكالية تدفعه الى قبوله الفقر في الحياة كوضع الهي لا مفر منه قال في كتاب المساكين يزعمون اننا في عصر العلم وفي دهر القانون ويريدون ان يسلبوا الناس ايمانهم كان الايمان هو مشكلة الانسانية مع انه لا حل لمشكلتها الا به. ان مشكلة الغنى والفقر وما كان من بابها لا يحلها العلم ولا القانون اذ هي من مواد القضاء والقدر في انشاء الآلم والاحزان واضدادها التي تقابلها، وما دام فوق الانسانية من السماء قوة لا تحد وتحت الانسانية من القبر قوة لا تسد فلا نظام الا على تصرفنا للناس امرنا ونهينا وتاويل الحياة معنى ^و غاية. فان لم يكن الشأن في ذلك مقروا في الغريزة على جهة الايمان فلم يكن العلم والقانون على ظاهر النفس الا ثورة بما في باطنها ^و الناس على ذلك بعضهم مريض كالهارب منه وهو مضطر اليه او كالمضطر ^{اليه} وهو هارب منه، وكل مركب في معنى مرماني النفس لا انسانية فيه ^(٤). وقال ايضا و
وانتفرما رايت الرجل من الناس وبه من جمال الدنيا مسحة الليثار عليه من نضرة هذه الحياة الوان الجنة والنار وما تشك في انه واسع البسطة مريض التعمه طيب العكبة وهو على ذلك رقعة خلق في اذيال الفقر يجبرها على اقدار الحياة وادناسها. ولو نطق لهر الغنى لقال دعني فما كل ذي مقبرة فقير ولا كل ذي منارة غني والفضائل قائمة في الدنيا بالصغار والفقراء ولكن من نكد الدنيا ان عنوانها هم الكبراء وحدهم ^{صرا} وحدهم على ان اكثر هؤلاء لا تكون منهم في كل امة الا الطبقة المنحطة انحطاطا غالبا ...
المنحطون مخطئون فيما اعتبروا به معنى الفقر اذ في حصرهم من جهاته الارضية وقد ترامت وصيقوا من حدوده ^{مفان}
المسيرة وقد تراحت وانما هو طبقة معنوية فوق الارض وانما هو اسلوب خاص في نظام الكون ولا سبيل

الى التفتيح والتحرير في اساليب الله نصرتها عن معانيها او نتكذب في تاويلها او نرد عليها ما ليس منها، وانما الشأن كله ان نحسن الفهم عن اوضاع القدرة الالهية بمقدار ما نستبين فيها من الحكمة فان في ذلك صلاح انفسنا وما جعل الله سبيل المصلحة والمفسدة الا من افهامنا حتى ان الامعة لتعد من اكبر العلل في امراض التاريخ الانساني. وربما كانت العلة الكبرى في طائفة من الطوائف صورة اثرية لا كبر راس فيها، فان نحن اسأنا الفهم او ذهبنا به المذاهب او افسدنا من تاويل حكمة الله او غيرنا او بدلنا فذلك واقع بنا لا يعدونا وما يستولي على الكون من جهلنا اضطراب ولا تلحق به آفة في وضع من اوضاعه وان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون.... فليكن الفقر والحسد والطمع والبخل ولكن برضا بمنع السخط وسكون يكسر شره النفس ورفق لا يعنف على الحق واعتدال يفر كل شيء على حده. ميوثذ يجد الانسان في كل نزوة من هويلات جنونه شيئا من الحكمة، او على الاقل شيئا يمكن من بعض الوجوه ان يسمى في باب المنفعة الانسانية حكمة (..)

الطفولية = والتسليم بالقضاء والقدر ميل طفولي الى حد ما، ولذلك نرى الراجعي يكرر الكلام عن الطفولية باقوال خالدة تخرج عن قلب هو نفسه طفل وظل طفلا في كبره ثم مات وهو طفل. والطفولية هي النقاء والاستسلام الى الحياة بفطرة بيضاء كما تقتضيها الحياة قبل ان تكفر بخيم العقل المتسائل كثيرا، هي الزمن الضاحك، هي السهولة قبل ان تتعقد، هي النظر الى الدنيا بخير البحث فيها كما هقلا. والذي يطالع الراجعي في هذه الفترة قوية فيه. ولا عجب فالايام طفولة والطفولة استسلام ورضوخ والاستسلام بعدد من كل ما هو شك، لذلك لم يشك الراجعي من الايام بحقيقة ايمانه، ولذلك كان طفلا في حياته الفكرية. وهو السبب الذي جعل من ادبه اجمل ترنيمة لتلك الحالة الطفولية في حياة المرء، وقد تجسست هذه النعمة كثيرا في مقالته (اجتلاء العبد) بكلام كأنه باقات من الزهور البيض ملوها الجمال، فاسمعه وما رايته اجمل منه كلاما عن طفولة الانسان = (هو الاطفال الذين هم السهولة قبل ان تتعقد. والذين يرون للعالم في اول ما ينمو الخيال ويتجاوز ويمتد، يغتشون الاقدار من ظاهرها، ولا يستبطنون

كيلا يتالمون بلا طائل. ويأخذون من الاشياء لانفسهم فيفرحون بها ولا يأخذون من انفسهم
 للاشياء كيلا يوجد لها الهم ... قانعون يكفون بالثمرة ولا يحاولون اقتلاع الشجرة التي
 تحملها. ويعرفون كفة الحقيقة وهي ان العبرة بروج النعمة ولا بمقدارها. فيجدون من
 الفرح في ~~تغيير~~ تغيير نوب للجسم، اكثر مما يجده القاندين القانع في تغيير نوب للملكة ...
 هؤلاء الحكمة الذين يشبه كل منهم ادغم اول مجيئه الى الدنيا حين لم تكن بين الارض
 والسماء خلية نالقة معقدة من صنع الانسان المتحضر ... حكمتهم العليا ان الفكر السامي
 هو جعل السرور فكر واظهاره في العمل، ~~وتشعرهم~~ البديع ان الجمال والحب ليسا في شيء
 الا في تجميل النفس واظهارها عاشقة للفرح ... هؤلاء الفلاسفة الذين تقم فلسفتهم على
 قاعدة عملية وهي ان الاشياء الكثيرة لا تنكر في النفس المطمئنة، وذلك تعيش النفس هادئة مستريحة
 كأن ليس في الدنيا الا اشياءها الصغيرة ... اما النفوس المضطربة باطماعها وشهواتها
 فهي التي تبغى بهم ^{الكثرة} الكثيرة الخيالية ... ومنها في الهم مثل طفيلي مغفل يحزن لانه لا
 يأكل في بطنين ... واذا لم تنكر الاشياء الكثيرة في النفس، كثرت السعادة ولوم من قلة، فالطفل
 بقلب عتيبة نساء كثيرات ولكن امه هي اجملهن وان كانت شوها ... فامه وحدها هي ام قلبه
 ثم لا معنى للكثرة في هذا القلب، هذا هو السر خذوا ايها الحكماء عن الطفل الصغير ...
 وتاملت الاطفال وائر العبد على نفوسهم التي وسعت من البشاشة فوق ملئها، فاذا لسان حالهم
 يقول للكبار: ايها البهائم اخلمي ارسائك ولو يوما، ايها الناس انطلقوا في الدنيا انطلق الاطفال
 يجدون حقيقتهم البريئة الضاحكة، لا كما تصنعون اذ تنطلقون انطلق الوحش يوجد حقيقته
 المفترسة، احرار حرية نشاط الكون ينبعث كالقوضى ولكن في ادق النواميس، ينبرون السخط بالضجيج
 والحركة فيكونون مع الناس على اختلاف، لانهم على رفاق مع الطبيعة ... وتحتدم بينهم
 الممارك ولكن لا تتعظم فيها الا اللعب ... اما الكبار فيصنعون المدفع الضخم من الحديد للجب
 اللين من السعوط، ايها البهائم اخلمي ارسائك ولو يوما ... لا يفرح اطفال الدار كرحمهم
 بطفل يولد، فهم يستقبلونه كأنه محتاج الى عقولهم الصغيرة ... ويملؤهم الشعور بالفرح الحقيقي

اكل ادم من الشجرة ولا شيء بضيق في الكون قايين الحلاوة التي ذاقها في الجنة، هي في افواه الاطفال ... ويتبسم الطفل ويضحك ونحسب ذلك على مقداره . كلا انه وان يكن طفلا صغيرا في مله جلده ولى وزن جملته، ولكن مادة ابتسامه على مقدار الطبيعة كلها لان عظمة الكون هي التي تراه بهذا الاسلوب الصغير . هو لا يحيا في العالم بل في معاني نفسه؛ وذلك هو دائما فوق الدنيا . . .)

نرجعه الافلاطونية؛ لا يخلو تفكير الراقعي من نوعة افلاطونية او مثالية يستشفها القاري من وقت الى آخر. فهذا التخني دائما بحالم فوق هذا العالم هو تفكير افلاطوني الى حد ما. والنوعة الافلاطونية جليلة عند الراقعي بمثل قوله (ومن ثم يصلنا العشق من جمال الحبيب بجمال الكون ونشئ) لنا في هذا العمر الانساني المحدود ساعات الهبة خالدة تشعر المحب ان في نفسه القوة المائلة هذا الكون على سعيه، فتمر النفس حيثئذ في سباحات اللذة الروحية من الجميل الى الجمال الى الطبيعة الى الله جلا جلاله . . .) لا اجزم في قولي ان الراقعي قد اطلع اطلاعا واسعا على الفلسفة اليونانية عموما والافلاطونية خاصة، فقد يكون ذلك وقد لا يكون ولا اقول جازما لان الراقعي اخذ مثل هذا المعنى عن افلاطون، فقد يكون ذلك وقد لا يكون، ولكن الذي اراه ولا شك فيه هو ان هذه النوعة في الصعود من الخاص العالم من الجميل الى الجمال، هي نوعة تكشف عن نفس افلاطوني. ولكن ذلك لا يخولنا ان نذهب بعيدا في قولنا بان الراقعي تلقى بالافلاطونية، والحاشي ملك للجميع، لا سيما والراقعي يبهض الفلسفة ولا يدين بخير القرآن ولا يرى الحقيقة الا في بنيه . لذلك لم يستطيع الاخذ عن الفلاسفة، ولذلك لم يكن له تفلسف خاص به. وهذا واضح في مثل قوله (فليس ينتظر العالم انبيا ولا فلاسفة ولا مصلحين ولا علماء يدهون له بدعا جديدا وانما هو يتربص من يستطيع ان يفسر له الاسلام هذا التفسير، وثبت للدنيا ان كل العبادات الاسلامية هي وسائل عملية تمنع الاخلاق الانسانية ان تتبدل في الحي فيخلع منها ويلبس اذا تبدلت احوال الحياة فصعدت بانسانها او نزلت؛ وان الاسلام يأمي على كل مسلم ان يكون انسان حالته التي فيها من الثروة او العدم، ومن الارتفاع او الضعة، ومن خمول المنزلة او تبحر السالكين او يوجب على كل مسلم ان يكون انسان الدرجة التي انتهى اليها الكون في سموه وكماله؛ وفي قلبه على مثاله بعد صفي في شريعة بعد تقاليد وتجربة بعد تجربة ولم بعد علم . . .)

القصة عند الرافعي

لعبت القصة دورا كبيرا في ادب الرافعي لا سيما بعد احتكاكه ^{بالناس} بالخصاس من طريق الرواية التي جلت من رجعيته المنطوقة، مع انه لم يتباد كثيرا في ميدانها ^{العلمية} لأنها لا تستحق حسب اعتقاده ان تكون الخاتمة التي يجب على الاديب ان يوجه قلبه نحوها هذا ما كان يعتقد له لذا لم يعرها انتباهه ولم يعمل على تغذيتها والسير بها الى ذروة الكمال ومن هنا قوله يوم مثل لماذا لا يكتب القصة (انا لا أحبها) بالمظاهر والاعراض التي ياتي بها يوم ونسخها يوم اخر، والقبلة التي اتجه اليها في الادب انا هي النفس الشرقية في دينها وفنائها فلا اكتب الا ما يكتبها حبة ويند في حياتها وسموغاتها ويمكن لفنائها وخصائصها في الحياة ولذا لا اس من الآداب كلها الا نواحيها العليا ثم انه يخيل الي رائي رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته ^{وحيته} فانا ابدا في موقف الجيش (تحت السلاح) له ما ^{يعانيه} يحفظه وما يكلفه وما يحاوله وفي به وما ^{يحاوله} يحفظ فيه، وتاريخ نصره ^{وغيره} في اعماله دون سواها. وكيف اختضعت الجيش رايته فن نفسه لا تفك انت ولا فن سواك اذ هو ^{لحقيقته} رايته وما يتأدى به للحياة والتاريخ (وقد يتبادر الى ذهن القارئ ان الرافعي يكره القصة لانها قصة، غير ان الواقع عكس ذلك. فقد كان يملك طبيعة فنية خاصة في القصة يعرفها من يعرفه في احاديثه الخاصة بينه وبين اصحابه حين كان يعتمد العصب والتسلية، فيطوى من الحديث وينشر ويكتم ويورى ويورد الخبر غير مورد ويهزل ولا يقول الا الجدي، ويطوى القادرة الا اخر الحديث، ويقول في اخر المقال ما كان ينبغي ان يكون في اوله. وكان له الى ذلك تعبير رشيق وفكاهة ^{رائعة} بخبرها لوقتها لا تملك معها الا ان تضحك وتدع الفصح المصنوع، وان ^{ثمة} في هذه الفكاهة لمذاهب ^{مقلية} بدية تحس فيها روحه الشاعرة وحكمته المشرقة وسخريته اللاذعة، ويكاد كبير من مقالته لا يكون برهاناً. بل على ذلك، قلما تخلو احداها من كدابة طريقة او نقطة مبتكرة. وهذه هي كل ادوات القاص الموفق، فما ينقصه الا ان يدرس فن القصة ومذاهبها ليكون فيها من السابقين المبرزين. ولكن الرافعي كان يجهل طبيعة ^{نفسه} ففهم، وكان له في كتابته القصة ما قدمت من الرائي فكان تخلفه من هذين ^(١٢) ... ^{قوله} الرافعي في هذا الصدد لم اكتب في القصة الا قليلا اذا ^{انت} اردت الطريقة ^{الكيفية} المصطلح على تسميتها بهذا الاسم، ولكنني مع ذلك لا اراني وضعت كل كتيبي ومقالاتي الا في قصة ^{الكتابة} بعينها، هي قصة هذا العقل الذي في راسي وهذا

(11) وهي أقسام الجزر الخمسة وهي ٢٠٠

(٢) البرقة " " " " " " " "

فيها النفس مشردة في طرق رزائلها. اذا قرأت الرواية الزائفة احسست في نفسك باشياء بدأت تسفل، واذا قرأت الرواية الصحيحة اردت من نفسك اشياء بدأت تعلو. تنتهي الاولى فيك بانثرا الهي. وتبدأ الثانية منك بانثرا الطيب، وهذا عندي هو فرق ما بين فن القصة وفن التطبيق القصصي^(١). هذه هي النظريات الراقعية في القصة عامة، لا سيما لكتابنا الذين احترفوها. اما قصصه فهو لم يعتمد على بل كان يقصها كما تأتي في مهب الاتفاق والمصادفة غير عامل على تتبع قوانينها واساليبها. وهي تتميز بطابعين قويين الطابع التاريخي والديني والطابع الاجتماعي. الطابع التاريخي = كان الراقعي يعتمد على حادثة من حوادث التاريخ الاسلامي لبنشئ قصته. وقصصه التاريخية كثيرة منها قصة (روبة في السماء) و (قصة زليج) و (سوالحب) و (والانتحار) و (البياتان) و (زوجة امام) و (بنته الصغيرة) يرجع فيها الى اصل يستند اليه من رواية في التاريخ او خبر مهمل في زاوية لا ينتبه له الا من كان له مثل طبيعة الراقعي الفثية واحساسه ويقظته على ان اهم ما اعلاه على ذلك هو عندي صلته الروحية بهذا الماضي ^{شعوري} بالحياة فيه كانه من اهله ومن ناسه، فان له بجانب كل حادثة وكل خبر من اخبار ذلك الماضي قلبا ينبض كانه له فيه ذكرى حية من ذكرياته تصل بين ماضيه وحاضره، فما يقرأه تاريخا كان وانطوت اباسه ولكنه يقرأه صفحة من ماضيه ما يزال يحس فيها احساس الحي بين اهله، فما اهن عليه بعد ان يترجمها من لغة التاريخ الى لغة الاحياء^(٢) غير ان النزوع الى تاريخ الاقدمين لم يكن هدفه الاوحد، فهو يحاول قبل كل شيء ان يجد فكرة ما او حكمة من الحكم او مغزى ادبي خلقيا، ومن ثم يرجع الى بطون التاريخ ليرى الحادثة التي يمكنه اخذها اطارا لهذه الفكرة. لذلك لا يجوز لنا ان ننظر الى هذه الحوادث التي سردها في قصصه الدينية كوقائع ثابتة من حيث الصحة التاريخية (فهو لا يفكر في الحادثة اول ما يفكر ولكن في الحكمة والمغزى والحدث والمذهب الادبي ثم تأتي الحادثة من بعده. فكان اذا هم ان ينشئ قصة من القصص جعل هدفه الاول ان يفكر في الحكمة التي يريد ان يلقبها على السنة التاريخ- على طريقته في انشاء المقالات- فاذا اجتمعت له عناصر الموضوع وانتهى في تحديد الفكرة الى ما يريد كان بذلك قد انتهى الى موضعه، فلبس له الا ان يفكر في اسلوب الاداء وسواء عليه بعد ذلك ان ينادي ^{لادري} موضعه على طريقة المقالة او على طريقة القصة، فكلاهما ينتهيان به الى هدف واحد؛ فاذا اختار ان تكون قصة تناول كتابا من كتب التراجم الكثيرة بين يديه، فيقرأ منها ما يتفق حتى يعثر باسم

(١) الرسالة عدد ٤٠ في ٩ ابريل سنة ١٩٤٤ السنة الثانية وهم ^{١٩٤٥}

(٢) سعيد الريان في حياة الراقعي وهم ٢٠٨

من اعلام التاريخ، فيدرس تاريخه، وبيئته، وخلاته، ومجالاته، ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة يجعلها كالبدء والختام لموضعه الذي احدثه من قبل؛ وانه ليلهم احيانا ويوفق في ذلك توفيقا عجيبا، حتى تأتي القصة وكأنها بنيت التاريخ والتاريخ فيها الا نادرة يرونها في سطور، او الاسماء الرجال ... على ان البديع في ذلك هو قدرة الرافي رحمه الله على ان يعبر بخياله في كل عصر عصر من عصور التاريخ، فيحسن احساسه ويتكلم بلسان اهله، حتى لا يشك كثير من يقرأ قصة من قصص الرافي في انها كلها صحيحة من الالف الى الياء ... واحسب ان الرافي لم يتخذ هذه الطريقة في تأليف القصص عن عمد واختيار فلم يكن ثمة ما يدفعه الى معالجة القصة واختيار طريقة فيها - وراه في القصة رايه - ولكنه مذهب اتفق له اتفاقا بلا قصد ولا معاناة؛ وانما تأتي له ذلك من طريقة والتي اشرت اليها في الحديث عنه عندما بهم بالكتابة؛ فقد اسلفت القول انه يحرص على ان يعبر وقتا ما قبل الكتابة في جو عربي، فيتناول كتابا كان كتب الادب القديم يقرأ منه فضلا ما قبل ان يشرع في املاء مقاله؛ فمن هنا كان اول الطريق الى مذهبه في القصة. ولكل شيء سبب. واحسبه لما هم ان يكتب عن (المعجزة العالوية) في تقاليد الزواج ومن فلسفة المهر وقد اجتمعت له الفكرة في ذلك تناول كمادته كتابا من كتب العربية يقرأ فيه ما تيسر، فانفق له في مطالعته ان يقرأ قصة سعيد بن المسيب والوليد بن عبد الملك وابي وداعة؛ فراها اشبه بموضعه وفيها تمامه، فبدأ له ان يؤدى موضعه هذا الاداء فكانت قصة. واذكر انه لما دعاني ليملي علي هذه القصة قال لي في لهجة الظافر ... "لقد وقعت على نادرة مدهشة من التاريخ فتحدثت عن فلسفة المهر حديثا فلا اعرف ابلغ منه في موضعه" ... فمن ذلك اعتقد ان اول هذا المذهب في القصة كان اتفاقا غير مقصود صادف طبيعة خصبة ونفسا شاعرة فكان فنكا جديدا ... اذا القينا نظرة على هذه القصص التاريخية فنحن نراها تدور في معظمها حول الزواج بمعناه السامي، كيف انه باب الى سمو الانساني. فقد حكم هذه الفكرة على لسان سعيد بن المسيب في قصة (زواج) ولى لسان عطاء بن ابي رباح وسيد الرحمن القص بن عبد الله بن ابي عمار الزاهد في قصة (سمو الحب) وتحدث عن ملك بن ... دبنار والحسن البصري في قصة (بنته الصغيرة) وعن الامام ابي محمد سليمان الاعمش في (زوجة امم) ... القصص عدا فكرة الزواج طابع ديني يشر الرافي من خلاله بالخلق السامية واتباع قوانين الشريعة الاسلامية. وهو كبيرا ما يبدأ القصة بمثل هذا الاسلوب / حدث احمد بن مسكين الفقيه البخداي قال ... (وحدثني المسكين فيما حدث وهو يصف ما نزل به قال ...)

(١) سعيد العمريه. حياة ارافي رحمه ٢٠٧

(٢) دحي القلم الجزء الثاني رحمه ١٨٠

(٣) " " " " " ١٧٢

من اعلام التاريخ فيدرس تاريخه وبيئته وغلانه ومجاليه ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة يجعلها كالبدء والختم لموضوعه الذي اعد من قبل وانه ليلهم احبانا ويوفق في ذلك توليفا عجيبا حتى تأتي القصة وكأنها بيت التاريخ والتاريخ فيها الا نادرة بروجها في سطور او الاسماء الرجال ... على ان البديع في ذلك هو قدرة الرافعي برحمته الله على ان يحسن تخياله في كل عصر عصر من عصور التاريخ فيحسن احساسه ويتكلم بلسان اهله حتى لا يشك كبير من يقرأ قصة من قصص الرافعي في انها كلها صحيحة من الالف الى الياء ... واحسب ان الرافعي لم يتخذ هذه الطريقة في تأليف القصص عن عمد واختيار فلم يكن ثمة ما يدفعه الى معالجة القصة واختيار طريقة فيها وراءه في القصة رايه ولكنه مذهب اتفق له اتفاقا بلا قصد ولا معاناة وانما تأتي له ذلك من طريقة ما التي اشرت اليها في الحديث عنه عندما يحكم بالكتابة فقد اسلفت القول انه يحرص على ان يعبر وقتا ما قبل الكتابة في جو عربي فيتناول كتابنا كمن كتب الادب القديم يقرأ منه فصلا ما قبل ان ينسج في املاء مقاله فمن هنا كان اول الطريق الى مذهبه في القصة ولكل شيء سبب واحسبه لما هم ان يكتب عن المعجزة المألوفة في تقاليد الزواج ومن فلسفة المهر وقد اجتمعت له الفكرة في ذلك تناول كعادته كتابا من كتب العربية يراها فيه ما يسر فاتفق له في معالجته ان يقرأ قصة سعيد بن المسيد والوليد بن عبد الملك وابي وداعة فراها اشبه بموضوعه وفيها تمامه فبد له ان يؤدي موضوعه هذا الاداء فكانت قصة واذكر انه لما دعاني ليملي علي هذه القصة قال لي في لجة الافر ... لقد وقعت على نادرة مذهبة من التاريخ فتحدثت عن فلسفة المهر حديثا الا اعرف ابلغ منه في موضوعه ... فمن ذلك اعتقد ان اول هذا المذهب في القصة كان اتفاقا غير مقصود صادف طبيعة خصبة ونفسا شاعرة فكان فننا جديدا ... اذا القينا نظرة على هذه القصص التاريخية فننا نراها تدور في معظمها حول الزواج بعنا السامي كيف انه باب الى السمو الانساني فقد حكم هذه الفكرة على لسان سعيد بن المسيد في قصة زواج وهى لسان عطاء بن ابي رباح وعبد الرحمن القس بن عبد الله بن ابي عامر الزاهد في قصة (سمو الحب) وتحدثت عن ملك بن ~~عبد الله~~ دينار والحسن البصري في قصة بنته الصغيرة ومن الامام ابي محمد سليمان الاعصر في (زوجة ~~عبد الله~~) زوجة امم . وهذه القصص عدا فكرة الزواج طابع ديني يشر الرافعي من خلاله بالخلق السامية واتباع قوانين الشريعة الاسلامية وهو كثيرا ما يبدأ القصة بعقل هذه الاسلوب حدث احمد بن مسكين الفقيه البخدادى قال ... وحدثنى المسكين فيها حدث وهو يصف ما نزل به قال ...

١/ سعيد الصرياني رحمه ٢٠٧

(٢) رحمه الله الخبازي رحمه ١٠٨

(٣) ١٧٢

(قال رأي الكبير^{الجزء الثاني}) .. اما اسلوبه في القصة فهو صعب لا يدرك بقراءة واحدة لما فيه من الاستعارات والمجازات والنحت والايجاز كما هي عادة الرافعي في كل ما كتبه. فهو اسلوب تأملي لا يقف بك فيه عند حد السرد التسلسلي من الحوادث والاخبار. فاذا قال فكرة من الافكار تأمل فيها ونسج حولها واعطا متفلسفاً وكذلك يعمد بك من سير الحادثة ليمود بعد هذا اللف الى اكمال القصة. فانظر كيف يتأمل في هذه الحياة ويحكي افكاره في معنى الانتحار على لسان الامام الشعبي في قصة (الانتحار)^{الجزء الثاني} شخصاً اراد التخلص من هذه الدنيا قال (من آمن بالله فكاننا قال له امتحني وكيف تراك اذا كنت بطلا من الابطال مع قائد الجيش اما تفرض عليك شجاعتك ان تقول للقائد: «امتحني وام بي حيث شئت» واذا رى بك فرجعت مشخا بالجراح وتالك البتر والتشويه اترأها او صافاً لمصائبك لم تنأ على شجاعتك ثم قال اذا لم يكن الايمان بالله اطمئنانا في النفس على زلازلها وكوارثها لم يكن ايماناً بل هو دعوى بالفكر او باللسان لا يحسبهما كدعوى الجبان انه بطل، حتى اذا فجأه الروح احدث في نيابه من الخوف ومن ثم كان قتل المؤمن نفسه لبلاء او مرض او غيرها كقرا بالله وتكديبا لا يمانه، وكان عمله هذا صورة اخرى من طبش الجبان الذي احدث في نيابه. والايمان الصحيح هو بشاشة الروح، واعطاء الله الرضى من القلب ثقة بوجهه ورجاء لما عنده، ومن هذين يكون الاطمئنان. والبشاشة والرضى والثقة والرجاء يصبح الايمان عقلاً ثانياً مع العقل؛ فاذا ابتلي المؤمن بما يذهب معه المبر ويطبش له العقل، وصار من امره في مثل الجنون - برز في هذه الحالة عقله الروحاني وتولى سياسة جسمه حتى يبقى العقل الاول. وبجيء الخوف من عذاب الله وثقته في الآخرة فينمريه خوف النفس من الفقر او المرض او غيرها فيقتل اقواها ^{الجزء الثاني} الاضعف، ويخرج الامز منها الاذل. فالاطمئنان بالايمان وقتل الخوف الدنيوي بالتسليم والرضى او تحويله عن معناه بجعل البلاء ثواباً وحسنات او تجريده من اوهامه باعتبار الحياة سائرة بكل ما فيها الى الموت؛ وهو بهذا عقل روحاني له شان عظيم في تصريف الدنيا بترك النفس راضية مرضية تقول لمصائبها وهي مطمئنة: نعم وتقول لشهواتها وهي مطمئنة لا ... وما الانسان في هذا الكون وما خيره وشره وما ^{الجزء الثاني} سخطه ورضاه ان كل ذلك الا كما ترى قبضة من التراب تتكبر وقد نسبت انه سياتي من يكسها /

هكذا يستطرد الرافعي في الكثير من قصصه فيسرد عن مجرى الحوادث ليقف قليلا على ذروة عاليتها من ذروات الفكر مطلقا بعيد الحياة في ^{الجزء الثاني} معانيها السامية ثم يمود بك بعد هذا الدوران في الاقصى الى حيث قطع تتابع القصة ولا ارى في ذلك ميباً فهو اسلوب اعظم الروائيين في اداب

(١) وهي العلم الجزء الثاني وهم ٢٧٢

(٢) وهي العلم الجزء الثاني وهم ١٠٢

الام الراقية لان الروائي الحق انما هو ذلك الذي ياخذ الحوادث التاريخية ذريعة له لظهار معنى من معاني الحياة وهكذا كانت غاية الرافي .

الطابع الاجتماعي = وهناك نوع اخر في قصص الرافي يتم بطابع اجتماعي كقصة (السطر السطر الاخير من القصة) و (الطفولتان) و (الشيطان) و (عروس ترف الى غيرها)

واللهي بكلمة الطابع الاجتماعي انها مقبسة من صميم الحياة الواقعية . فقد كانت نفس الرافي كعدسة آلة التصوير سريعة ^{المنعكسة} ~~المنعكسة~~ المشاهد التي تقع على مسرح كل يوم ~~لكن~~ ^{لكن} بهر به حاد باله له او يقع له حظ يسره الا كان له من هذا وذلك مادة للفكر والبيان . وكانما كل ما في الحياة من مسرات والام مسخر لفته . فهي للناس مسرات وآلام وهي له اقدار مقدورة ليبدع بها ما يبدع في تصوير الحياة على طبيعتها وفي شتى الوانها ليزيد بها في البيان العربي ثروة على تبقى على العصور . وهو اخلاص للفن لم يعرفه في اخذ غير الرافي ^{حياته} كانت اليومية ذاتها توحى القصة له وساعله من ثم الا ان يسبح عليها فنه وادبه البياني الرائع . واجدني مضطرا في مثل هذا الموقف الى ان اعتمد مطولا على كتاب الاستاذ سعيد العربيان (حياة الرافي) كي اظهر الاسباب الاجتماعية التي دفعت به لكتابة بعض قصصه المستمدة من صميم الحياة اليومية . والاستاذ العربيان مؤرخ سيرة الرافي لازمه في حياته التي وقف على الكثير من لحياتها وسداتها . لذلك لا ارى مانعا من الاعتماد على كتابه وقد رجعنا اليه اكثر من مرة في سياق هذه الدراسة . بهذه الطريقة ^{ممكننا} ~~ممكننا~~ ان نعرف زمان بعض القصص ومكانها .

قصة الطفولتان = قال الاستاذ سعيد العربيان ^(١) كان الرافي قلما يجلس الى مكتبه في المحكة الا ان يكون له عمل فاذا لم يجد له عملا في المحكة انصرف لوقته الى حيث يشاء غير خيد بموعد من مواعيد الوظيفة وكان يزورني احيانا في المدرسة ليقضي معي وقتا من الوقت او ليصحبني لبعض حاجته وكان يخطبني على علي ويوم انه لو كان في مثل هذا الجو المدرسي لوجد لنفسه كل يوم مادة تلهمه الفكرة والبيان وسحب في كيف لا اجد في صحبته هولا الصغار الذين يعيشون في حقبة الحياة ما يوقظ في نفسي معنى الشعر والحكمة والفلسفة وزارني يوما وكان من تلاميذه في المدرسة طفل في العاشرة ابوه من ذوى الحول والسلطان فكان يصحبه شرطي كل يوم الى المدرسة ويعود به وكان فتى لونا فيه طراوة وانونة وله دلال وصلف . فاتفق ان حضر الي لشأن ما والرافي معي ووقف الشرطي ينتظره على مقربة من مجلسنا ونظر الرافي اليه وقد وقف يكلمني وهو يتننى ويتخلى لا يكاد يتقل في موضعه . . . ثم انصرف الغلام وانصرف الشرطي وراءه يحمل حقيبته والتفت الرافي الي يسألني وبين تلاميذك كثير من مثل هذا (الشمعون) وكلمة الشمعون عند الرافي هي علم مشترك ^{للكلمة} فتى جميل . وتاريخ هذا الاسم قديم يرجع الى ايام صلة الرافي بالمركم الكاظمي اذ كان الكاظمي له صديق من

يتبعه هو جنود أبيه وان من خبره ... قال الرافعي وهذا موضوع جديد .. فهذا كان سبب انشائه قصه (الطفولتان)

المعنى ... فاني لعه ذات مسا اذ جاءه البريد برسالة من انسة في دمشق ومعها صورتها مهداة اليه تبته

الفرقة هي الابطالة الحسنة " ب " فما كان بينها وبين الراعي الا بظلا نظرة وجوابها ثم كانت قصة حب . . . وحل

540 " " " " " (5)

الرافعي الشاعر .

قال الأستاذ سلامة موسى في مقال له عن الرافعي ما يلي «يمتاز شعر الرافعي بقوة الصنعة وحسن النظم، ولكن خياله مع ذلك عربي تقليدي . تعرف ذلك من تشبيهه صفحة البدر بصفحة الامرد وضوء الفجر برواق الصام؛ هذا الى خلوه من مثل اعلى بتوخاه. ونقول بمبالغة اخرى انه يجيد الصنعة اكثر مما يجيد الفن» .^(١) حكم صائب على الرافعي الشاعر . فقد امتاز شعره بالعنانة والقوة وذلك كان مقلداً للاقدمين، اما الخيال عنده فهو باهت الى حد بعيد، كانك وانت تقرأ شعره امام هيكل عظيم لا صفوة بيانية فيه، ولا ~~وهي~~ عذبة تترقق في ثنائه . ولا ادري كيف اعطى عبقرته الخيالية في نثره البياني ~~على~~ الذي تفوقه على شعره . فقد عجز في هذا ~~المختبر~~ ^{المختبر} عن اداء تلك اللوامع في باطنه . ولا بد للقارئ عندما يترك نثر الرافعي ليبدأ بشعره من الاحساس بانه يهبط من علو شاهق الى مهوى ~~سحيق~~ ^{سحيق} كأنه ~~الذي~~ ^{الذي} القي من سماء الى حضيض . فابن تلك الصنعة ^{المرئية} الشفافة في نثره ابن ذانك الجناحان المتعاليان في فضاء البيان الصافي ^{كأنه} شعره خالياً منها الا في قليله، حتى لا كاد امسك عنه كلمة شاعر لا قول ~~عنه~~ بانه قراض فقط . لم يجد الأستاذ سلامي موسى عن جادة الحق قوله انه يجيد ~~الصنعة~~ ^{الصنعة} اكثر مما يجيد الفن . فبقدر ما يبدع في نثره يسف في شعره، وقد يكون ذلك مسبباً عن قانون نفسي يقضي على من يبدع في شعره الا يجيد ~~الفن~~ ^{الفن} النثر، وعلى من يخلق في نثره الا يبدع بشعره . وهو سؤال كبيراً ما طرأته على نفسي وانا ادرس الرافعي في شعره وفي نثره لعظم الفارق القائم بين النثر والشعر فيه . وهي ظاهرة سيكولوجية نجدها مراراً عند الادباء وهي التي حدثت بالقلق عندى على القول في هذا الصدد : « من قوي نثره ضعف نظمه ومن قوي نظمه ضعف نثره ولما يتساويان »^(٢) ولكني ارجع الى نفسي واقول لاجب في ذلك فقد نظم الرافعي عندما كان في طوره الاول ناهجاً على طريقة القدماء بالفاظه وصوره كما حصل له هذا ايضا في ميدان النثر خلال المرحلة الاولى من حياته الادبية . لذلك لن يخلد الرافعي بشعره ولن يبقى من ديوانه ما تتباهى به الاجيال المقبلة، فهو مقصر في هذه الحلبة وهاجز ^(٣) عن ان يصب في قصيدة من الشعر ما كان يستطيع ان يكتبه في سهولة مقالا من مقالاته الشعرية الرائعة التي يعرفها قراء العربية ^{فيها} قروا للرافعي . والحق ان الرافعي بطبعه شاعر في الصف الاول من الشعراء، لا اعني الشعر المنظم فذلك ميدان قد سبق فيه كثير من شعراء العصر بل اعني الشعر الذي هو التعبير الجميل عن خلجات النفس وخطرات القلب ووهي ~~الوجدان~~ ^{الوجدان} ووشبات الروح . ولقد كان - رحمه الله - بما فيه من اعتداد بالنفس - يكتب ~~المقال~~ ^{المقال} الفني المصنوع ^{فني} لفظه بمعناه ويربط اوله بآخره ويجمع بين اطرافه كلما ينفض به قلبه من معاني السرور والالم والرجاء والياس والرغبة والحرمان . فاذا فرغ من انشائه جلس يترنم به ويحمده

(١) اطول مجلد ٢٢ سنة (١٩٢٢-١٩٢٤) دمج ٤٠٤

(٢) الجزء الثاني من مجموع الرافعي دمج ٢٠٨

على سمعه الباطني ثم لا يلبث ان يلتفت الى جلسيه قائلاً سمعت هذا الشعر، أرايت شاعرا في
العربية يملك من قوة البيان ما يجمع به كل هذه المعاني في قصيدة منظومة ... هذه العبارة التي
كان يسميها جلساء الرافعي كبرا تفسر لنا قول الرافعي ان في الشعر العربي قيودا لا ^{تفجع} لا تفجع له
ان ينظم بالشعر ما يريد ان يعبر به عن نفسه الشاعرة، او تؤيد ما ادعيه انا من انه كان بشعر ^{بالجز} بالجز
عن ابانة كل خواطره الشعرية في قصيدة من المنظم ولا يعجزه البيان المنثور نعم كان شعر الرافعي
اقوى من اداته وكانت قوالبه الشعرية تضيق عند شعوره^(١٠) .
ان اكثر شعر الرافعي نزوع نحو القديم كما تظهره هذه القصيدة النموذجية مثلا قال يصف الاصيل
واقبال الليل ...

نوب السماء مطرز بالمعجـد	وكانها لمبت قبيص زمرجـد
والشمس عاصبة الجبين مريضـة	تصفر في مندبلها المتـيـد
حسدت نظيرتها فاسقمها الاسـى	ان السقام علامة في الجـيـد
ورات غبار الليل ينفذ فوقـها	في الافق فأنطبت كمين الارـمـد
وضمض السهار يشق في انوارـه	حزنا واقبل في رداـه اسـود
فتهللت غرر النجم كأنـها	كانت لضاحية السماء بمرصـد
وكانها عقد تنائـسـر دره	من جيد غانية ولم تتعمـد
والافق بين مفضض ومـذهب	كالجيد بين معطل وقـلـد
وكان صفحة بدره اذ اشرقـت مصـد	مصقولة الخدين صفـة امـرد
وكان ضوء الفجر رونقـا صام	نضبت صيفته ولما تخمـد ^(١١)

ان تشبيهه صفحة البدل بصفحة الامرد وضوء الفجر برنق الصام، ثم قوله عن العقد (ان دره
بتناثر من جيد غانية ولم تتعمد) هذا كله ينقلنا الى جو الشعراء الاقدمين، وقد كان الرافعي يسج
على ^{هذا} متوالهم معنى وسبيل في هذه المرحلة الاولى من حياته الادبية، لذلك نراه يطبع على غيرانها
في اكثر اشعاره، وقال ايضا يصف ساحة الحرب ...

ونقع دجوجي ترى السحب فوقه	لما راعه من برقه تنقطع
اذا انفجرت للريح فيه طريقة	نجت وما حتى تنز وتسقط
وان طالعت الشمس تذهل فلا ترى	امغربها في النقع لم ذاك مطلع
وقد كشفت تلك المعجوز نقابها	وقالت لاهليها قفوا ثم ودعوا
والتي الردى صيحاته دافعا بها	لذاك ثم الموت اسمه اليهم مدفع
على عصبة لم يظلموا غير انهم	مفاتيح اما قبل اغلق موضع
تعاطوا كرووس الموت في حومة الوفي	وذاك رنين الكاس بالكاس تفرع ^(١٢)

ض تضم الحبيب تحت التراب
فيه سر الهوى ومر الشباب
كتب عطرها ملام الغياب^(١١)

يا محبا بمشي على الارض والار
تحتوى الظرف والجمال قلبا
انما الزهر من حبيبك هذا

يم انظر الى هذا الموشع للخنا^١ وهوانه على البعد :

لا هيا فوق اراجيح الشجر
فتراى بين احضان الزهر
ان جهد الشوق في البعد خسر
بعد زنب الدهر فبنا لا عليك^(١٢)

يا نسيم الفجر يا طفل الربى
كلما اختال على الارض كبا
خذ لمن اهوى على البعد نبا
انت يا من فيك انسى من انا

الا ترى رمزية شفافه عذبة وابدا في مثل قوله (ان جهد الشوق في البعد خسر) وحين قولك انت يا من فيك انسى من انا (. فلا بد للقارئ من ان يجد عند الراقي بعض ^{التي} لعلت لشعيرة البديعة مستارة كوا في قصيدته عن لبنان مثلا عندما قال يصفه :

ففررت للذات من الامسي
يضع الهوى قمر بضبي^١ امامسي
ة وغبت حتى غبت عن اوهاامي
اطلال مغفرة على الانمام
دفت محاسنه على الافهام
متعظم حتى على الاعظممام
في الكون اغتلة على الابمام
ابدا لظدر الارض غير وممام^(١٣)

غفل الزمان هناك من غفلاته
في كل منزلة وكل تنبئة
هلوت حتى عن امامي الجا
افق بطل على الحياة وهما
لبنان فن في الطبيعة قائم
متكبر حتى على اكبارها
قم تغطي بالسما^١ كانها
جبل اذا وصفوا الروامي لم يكن

ان الراقي ^{بما} في مثل هذه القصيدة ولكن نفسه قصير لا يطول في جميع اشعاره، لذلك لا يصلح شعره بوجه عام ان يكون خالداً الا في اقل قليله ...

(١١) المديانة الجزء الاول دج ٢٢

(١٢) " " " " " ٢٢

(١٣) " " " " " دج ٢٨

ان نقد الرافعي يشبه هجاء القدماء يم كانوا يتراشقون سهام السباب، فقد ظهرت عصبته الجامعة في هذا الميدان النقدي باجلى مظاهرها، وركز حاقدا ساخطا بنحرف عن الجدل المنطقي والبحث العلمي، وهجماته معروفة في تاريخ الادب ضد طه حسين والعقاد، فقد يكون الحق بجانب الرافعي وقد لا يكونه، غير انني لا اؤفق على الطريقة التي هاجم بها خصومه، لان النقد الرسمي في عرفي لا يكون سبابا بل يتوخى الواقع من الحسنات والسيئات على حد سواء دون التطرق الى الشخصيات والتكليل بها، هذا ما لم يفعله الرافعي وسأمر في هذا الفصل مرا سريعا جدا كما كهو قلت في المقدمة عارضا بعض نماذج النقدية ليرى القارى حد الغضب الجاهل الذي ذهب اليه الرافعي بأسلوبه الجارح ^{كثيرة} كيف ينتقد الدكتور طه حسين ... (ان طه حسين هذا مجرمة اخلاق مضطربة وتكرار متناقضة وطباع زائفة وما من عالم في الارض الا وانت واجد اراءه قائمة بمجموع اخلاقه اكثر مما هي اتية من صفاته العقلية، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح (ان اخوف ما اخاف على امتي كل منافق عليم اللسان) وطه رجل ارسلوا لسانه وقلبه الى اوربا فرجع بلسانه وترك قلبه هناك في خرائب روما فيجب ان يكون نفاقه وثرثرته مقصودين على نفسه ويجب ان تحمي الجامعة طلبتها منه ويجب ان يلهض علمائها في الزام هذه الجامعة ان تعلن براءتها من اراء استاذها حتى لا يزيد به احد فتبقى قيمته وقيمة اراءه كما هو في نفسه ^{ولا} وأهون به لا يكما هو بالجامعة ولعظم بها ... وقال ايضا (والامر الثاني الذي نخشاه من طه انه اداة ^{الرجس} استعمارية تعمل في افساد اخلاق الامة وحل عروتها الوثقى من دينها في ادبه ولغته وكتابه وتحقير كل من يتسم بمحيريشي من ذلك عالما او متعلما او متروكا لهو دائب في ازالة ما وفر في نفوس المسلمين من تعظيم نبينهم وكتابهم وايثار دينهم وفضيلتهم واجلال علمائهم وسلفهم مرة بالتكذيب ومرة بالتهكم ومرة بانسداد التاريخ ومرة بنقل الاخلاق الفاحشة المتعمهرة من مدينة الفرنسيين وهلم جرا، حتى كانه شيطان عاقبه الله فطمعه في جلد انسان ^(٢) وقال ايضا (النجاة النجاة اينها الامة فلوا استطاعت الجامعة المصرية ان تجعل هذا المخلوق طه حسين يترد على البيت عمره وينقله من قبره ويجعله تلميذا في الجامعة بكفر بابراهيم واسماعيل ومحمد صلوات الله عليهم - لما امكها ان ترد على ملحد ايمانه الضائع ^{الزاهي} ولا على شاك يقينه ^{الزاهي} اللهب، وهذا لو انما تكفر ابنا المسلمين بالعلم وللعلم فكيف والامر كله جهل في استاذها وسقوط في نفسه ^{وضيع} وضع في عقله وسوء تقليد منه او تقليد سوء، وهو رجل لا يعرف علمه الفلسفية ولا يدرك انه منهم امام الحسن فهو يهدم ويخرب بقانون طبيعى فيه لانه اشعل من داخله لبتفجر من داخله، ولما منعت الحياة ان

جواسمه - ١١ - -

ان بعثت ^{جواسمه} ذهب ^{مجهول} كنه الى فكره وتسلط على لسانه فهو رجل قانونه الطبيعي انه
 مهما باخذ يفسد ومهما يدع يصلح ^(١٠) . اف عند هذا الحد فهي مشاحنات في ميدان
 الادب سيظهرها النسيان. هي موجة مرت على ادبنا الحديث اكسبته طابعا جديدا من النقد
 الجارح ولكنه باب يجب علينا ان نغلقه .

(١) قال الراجحي (لعل المصري اراد فلسفة هذا المعنى عين قاسم نفسه :
 عيني العين يتلوه عيني الدين والظهور فليتي القوي ثلاث لسان

(٢) تحت راية القمارة وجه ٢٥٠

الرافعي ذاك الاديب المجهول

عندما اقدمت على كتابة هذه الرسالة عن مصطفى صادق الرافعي، لم اكن قد وقفت بعد على اراء الناس فيه والاثر الذي تركه في الاساطير الادبية . كنت اظن اني هناك من بشاطري هذا الاعجاب الذي اكنه في نفسي لصاحب " اوراق الورد " ويرى فيه ما اراه من قوة في التعبير وحد في التفكير . ولم كانت ذهنتي عظيمة عندما رايتني منفردا بهذا التقدير مع فئة ضئيلة جدا . غير ان ذلك لم يفت من عزيمتي للمضي الى النهاية، بل زادني ايمانا به لانه اشبع نهما في عقلي للتفكير وشوقا في ذوقي للتعبير . ولا تنكب عن القول بانه ادب الخاص لا العامة، والخاصة عندنا قليلة بعد، اذ الجمهور لا يحبر على المعاناة ولا يملك قوة التعمق في مشاكل الحياة . فلا عجب اذا راينا الرافعي مجهولا او مكروها، فذلك نصب كل عبقرية فذة تُبرق الى الناس لوامع وجدانية اقوى مما يتحملون، فتاتي ثم تذهب وكأنها لم تات ولم تذهب الى ان يمر على عقول الناس زمن طويل تنضج فيه وترهف الاذان ^{لسماع} هذه النداءات البعيدة، وتتمرس النفوس ^{للاستماع} لا لتقاط هذه اللغات من الاغوار . اجل لا اريد اخفاء اعجابي كما صرحت بذلك مرات، ولن استطيع ذر الرماد على عيني . غير اني لا ادع هذا التقدير بطغي على ما يتطلبه موقف من برهنة وتحليل، لذا اراني مضطرا في نهاية هذه الرسالة الى اظهار الاسباب التي جعلت الرافعي مجهولا او مكروها . وقد راجعنا اربعة احداث حسب ما اظن شقة بين الناس ^{وسببه} :

- ١- سيره على غرار الاقدمين : ^{قلت} في سياق الحديث عن ادبه انه ذو طابعين مختلفين احدهما تقليدي وهو الذي عرف به اول ما عرف، والثاني ^{البحر} خلاق وهو الذي طلع به على الناس في مرحلته الثانية من حياته الادبية. ولما كان الطابع التقليدي هو السابق في تاريخ الرافعي ، فقد عرفه الناس رجوعا قبل ان يعرفوه مجددا، ^{ملك} طبع في اذهانهم صورة ادب متحزلق يخرق في انتقاء الالفاظ . والفكرة متى غارت بجذورها وتعددت ثم تمكنت ^{لحجة} اطنابها في النفس تصبح الاشياء بالوانها، فلا يعود الانسان من ثم قادرا على ^{روية} الاشياء في ذاتها، بل يخمنها كما تترأى له من خلال موهله . هكذا كانت حالة الرافعي مع الناس، فقد جلته (الرسالة) بعد ان نزلت الى ميدان الصحافة، وشذبت الاسجاع من اسلوبه، وليبت من صلابة الالفاظ، ولطفت من بيانه حتى شَفَّ وان من ابعاد فكرة خالدة برونق في التعبير، وحسن سبك افحم بهما الادباء واعجز، ولكن كان قد سبق السيف العزل، فهو المقلد المكروه. هكذا تطلق اكثر الاحكام عليه دون ان يكون قد اُطلع على اسلوبه البديع في مرحلته

الادبية الثانية، فيساق الواحد منها بما يسمع منه أو بما يكون قد رسب في ذهنه من أدبه

المقلد ...

المقلد

ب- صعوبة أدبه : أدب الرافعي أدب فكر بليغ وبلاغة مفكرة. فهو من الذين ينتزعون أحطاف انتزاعاً من بعيد الغور ويسكبونها في قالب من الكلام المنحوت بأزميل البيان والابجاز. لذلك يجهد أدبه الأذهان كما اجهد الرافعي عبثه. ففي تعبيره الموجز تفكير ~~مستعجب~~ مستعجب، وفي قبض الفاظه بسط معانيه. ^{فأول} يعبر عن مواطن الاشياء بأدب ^{بليغ} بليغ يوصي ولا يوضح، ويدفعك الى التأمل معه في أمور الحياة بحبارة فنية كأنها دورة خلق وتركيب كما يقول هو . ومن هنا كانت الالفاظ لا تعطيك ما هو بائن في ^{شعر} الشعر المعلم بل ما غائب في غموض المجهول، فتري ذاتك وانت تقرأ معظم متنوره بين حقيقة الفكر ازلية وجمال اسلوب بليغ، بين مفكر وأديب. لذا صعب الرافعي وضغ، ولكنها صعوبة سهلة وضوض واضح لمن اوتي ملكة التأمل والنظر الى البعيد. غير ان عصرنا هذا هو عصر سرعة وتجارة، واهله اقرب الى مطالعة القصص السهلة منهم الى اقتناء المجلدات الحكيمة ~~والفلسفية~~ والروائع الفلسفية، والناس عندنا لم يألفوا الامعان والصبر والخصوص الى الاعمال، فاذا ترك لواعيتهم الباطنية شيء مما لم يقل كي يبحثوا عنه بذاتهم في ذاتهم نفروا كارهين، لا يهمهم لا يريدون ان يشاطروا الفكر بتفكيرهم والشاعر بشعورهم والبيان بخيالهم ^(١) فالسرعة والصحافة والتطفل هي الهلايا الثلاث التي تكابدها البلاغة في هذا العصر. ^(١) وأول ما يلاحظه القارئ في أدب الرافعي تماسك في اللغة يدعو الى الامعان، وشفافة في البيان تدعو الى التبهر، وضوض وراء الحقائق يدعو الى التأمل، والامعان والتبهر والتفلسف مؤايل لم يألفها الوسط الشرقي بعد، وبذلك يكون الرافعي قد سبق زمانه وسما على مكانه ليلج حلقة الذين هم فوق الزمان وفوق المكان ...

ج- نفذه السلاذع : لقد هاجم الرافعي ^{شعر} شعرهم . وكان في جولاته ^{النفذة} النفذة ذا عصبية

سريعة الهيجان للذود عن لغته ودينه وشرقيته في عصر اخذ الفكر الغربي يتسرب شيئاً فشيئاً الى الشرق موقظاً نزع الشك الديكارتى في قلوب الادباء والمفكرين، ومعها الايمان، دافعا الناس الى التساؤل عن حقيقة تاريخية الاداب في بعض عصورها كما صرح بهذا طه حسين. لذلك نرى الرافعي، وهو المسلم العربي الشرقي قبل كل شيء، لا يتنكب امام شكوك طه مثلا في الشعر الجاهلي عن ان مجرد قلمه لينهال باللائمة عليه، فكان لاذعاً بأسلوبه النقدي الى حد بعيد، جارحاً بغضبته تلك التي أرجعها حسب ظني الى مزاجه العصبي السريع التهيج. لذلك

(١) من كلام احمد حسن الزيات في كتابه دفاع عن البلاغة ومعه .

خرج نَقْدَه مَوْلَا طَابِعًا فِي أَذْهَانِ النَّاسِ صُورَةً ذَمِيمَةً عَنْهُ أَفْسَدَتْ عَلَيْهِمُ الْفُظْرَ إِلَى آدَبِهِ
مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ آدَبٌ صَافِي الْبَيَانِ رَفِيعُ الْخَيَالِ . وَلَا يَدُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ أَنْ يَتَأَثَّرَ بِالْأَفْكَارِ الَّتِي
تَكُونُ قَدْ تَحَكَّمَتْ بِجَذْوَرِهَا فِي دَاخِلِهِ ، لِذَا أَحْبَبَ عَنْهُ الْجُمْهُورُ لِأَنَّهُ رَجَعِي يَخْلُطُ بِنَقْدِهِ وَيَقْصُو .
هَذَا مَا يَدْعُونَ ...

دَسْخِيرَةُ الْآدَبِ فِي سَبِيلِ الدِّينِ : حَسَبَ الرَّافِعِيِّ نَفْسَهُ مَرْسَلًا لِلدِّفَاعِ عَنِ الْقُرْآنِ .
فَكَانَ آدِيبًا لَدَيْنَ خَاصٍّ وَشَرْقِيًّا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ . وَلَهُ ذَلِكَ مَعْنَاهُ تَسْخِيرُ الْآدَبِ لِنُحُمَاتٍ خَاصَّةٍ . غَيْرَ
أَنَّ الْكَاتِبَ الْحَقَّ هُوَ الَّذِي يَتَجَهَّ بِآدَبِهِ إِلَى قَدَمِ أَقْدَامِ نَفْسِ الْإِنْسَانِ ~~الْوَاسِطَةِ~~ الشَّامِلَةِ فَلَا
يُحْصِرُ قَبْلَتَهُ فِي دِينٍ أَوْ وَطَنٍ لَّا ^{الْحَقِيقَةِ} فِي مُتَتَابِلِ ~~بَيْنَ~~ النَّاسِ جَمِيعًا يَنْهَلُونَ مِنْ يَنْبُوعِهَا الْعَذْبِ .
وَلَكِنَّ الرَّافِعِي الْخَاصَّ كَثِيرًا مَا كَانَ يَطْفِي عَلَى الرَّافِعِيِّ الْعَامِّ ، لِأَنَّهُ فَتَرَتْ مِنْهُ عَقُولُ ~~الْعَامَّةِ~~
لَمْ تَجِدْ فِيهِ طَابِعَ الشُّمُولِ . وَهَلَى الرِّغْمُ مِنْ ذَلِكَ لَا يَخْلُو آدَبُهُ مِنْ نُحُمَاتٍ إِنْسَانِيَّةٍ هِيَ
الَّتِي سَتَبْقَى وَدِيمَةً فِي هَيْكَلِ الْخُلُودِ . فَقَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَكْتُبَ مَا لَوْ نُقِلَ إِلَى غَيْرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
لَظَلَّ ^{نَهْائِلُهَا} ~~عَالِيًا~~ ، وَمَا لَوْ قَرَأَهُ غَيْرُ الْمُسْلِمِ لَظَلَّ خَالِدًا ، وَمَا لَوْ أَطْلَعَ عَلَيْهِ الْغُرَبَى لَظَلَّ خَالِدًا .
أَيْضًا . وَقَدْ كَانَتْ غَايَتُنَا نَحْنُ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ أَنْ نُخْرِجَ قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ هَذَا الرَّافِعِي الْإِلَامُحْدُودَ
مِنْ الرَّافِعِيِّ الْمَحْدُودِ ...

محمد سعيد

مصطفى صادق الرافعي وأدبه .
بقلم كمال يوسف الحاج

لقد كانت غايتنا في هذه الرسالة ان نعطي الرافعي مركزه الادبي الحق ، لاننا ^{راينا} هذا الاديب
مجهولا في بعض الاقطار العربية لا سيما لبنان . فاردنا بذلك ان ندرس الاسباب التي تضافرت على
طمس معالم ادبه وان نستخلص ما هو خالد في ادبه لما سيظوه النسيان . وقد ارجعنا هذه
الاسباب الى اربعة ذكرناها في اخر الرسالة في فصل خاص بعنوان الرافعي ذاك الاديب المجهول .
وهذه الاسباب هي كما يلي :

١ - سيره على غرار الاقدمين في بد ' حياته الادبية فتعصرت على ذلك في لغته وسجع كثيرا .
وبذلك كان ادبه ادب لغة في معظمه .

٢ - كون ادبه ادبا صعبا بعيد الغور في معانيه يجهد ذهن ورمي بالقلي ' الى اقصى
الفكر الوجدانية . والشرقيون لم يتعودوا على هذا النوع من التأديب . فهم اقرب الى مطالعة القصص
السهلة منهم الى اقتناء المجلدات الحكيمة والروائع الفلسفية .

٣ - نقده اللاذع لامثال طه حسيّد وعباس محمود العقاد ، الامر الذي طبع في اذهان الناس
صورة مشوهة عنه . لانه كثيرا ما كان يخرج على قوانين الحشمة والخلق .

٤ - تسخير ادبه في سبيل الدفاع على اللغة العربية ولا سيما الدين الاسلامي . وهذا في
نظرنا يحط من كرامة الادب الذي يجب عليه ان يوجه قبلته نحو الانسانية الشاملة .

بعد ان مهدنا ^{هنا} دراستنا بقدمة وجيزة قلنا فيها اننا نكتب عن الرافعي على نحو شعورنا

لا على نحو ما قاله الآخرون ، اتينا بفصل خاص على عرضة تضب لاشهر مؤلفاته كالأوراق الورد ،

والسحاب الأحمر ، وحديث القمر ورحي القلم ، وأعجاز القرآن . . . الخ . ومن ثم انتقلنا الى البحث في ادبه فدرسنا أولا نظريات الرافعي في الادب كيف انه شرع قواعد يجب على كل اديب حسب اعتقاده ان يسير على غرارها كي يخلد . وهذه الدعائم المشرفة هي :

١ - المجدول - اي تركيز الادب على عالم ما بعد الطبيعة عالم الفكر والروح . وذلك يرتفع الاديب الى درجة الفيلسوف .

٢ - المثالية - اي تصوير الطبيعة على ضوء النزعات الانسانية وبث كهارب الحياة في الجواد وجعله ذا شعور واحساس .

٣ - الالتفام - اي ان الاديب لا يتوصل الى افكاره عن طريق المنطق بل هناك قوة خفية تلعب دورها في ابراق المعاني له هي ذهن سماوي ^{يفرض} تقضي عليه فرضا .

٤ - الاسلوب - اما الاسلوب فهو الميدان الذي يتمكن فيه الاديب من اظهار شخصيته لانه وليده ولذلك قيل الانشاء انما هو الانسان عينه . وقد درسنا في هذا الفصل الذي خصصناه للاسلوب جولات الرافعي البعيدة المدى لانه من اكثر الذين اعاروه قسطا وافرا من العناية . فاستعرضنا الكلمة ورايه فيما تم تسكه باللغة السريية . ثم اللغة بين التوقيفية والمواضعية ومن ثم انتقلنا الى دراسة ابواب ثلاثة هي الحرف ، الكلمة ، الجملة ، وذلك يكون قد بحثنا في موسيقية اللغة حتى اذا انتهينا من هذا العمل طرقتنا باب البيان ، وهو كما حددته الرافعي صور نفسية في الطبيعة وصور طبيعية في النفس .

ثم انتقلنا بعد هذه الجولة في نظريات مصطفى صادق الرافعي الى دراسة ادبه في ذاته . فظهرنا كيف انه اجتاز مرحلتين كان خلال الاولى منهما اقرب الى القديم وكان في الثانية منهما

اقرب الى الحديث . فقلد الاولين في بادئ حياته الادبية من حيث السجع وتوخي التحذلق في انتقاء الالفاظ . وقد اثر عليه هذه النزعة التقليدية كثيرا اذ طبعت في ذاكرة الجيوران الرافعي رجعي بحث .

اما في الرحلة الثانية من حياته الادبية فقد تراجع عن الكد درا السجع وحوشي الكلام وبهذا كان مجدداً في بيانه ^{الربري} الرعني .

١ الرافعي الفيلسوف : في ادب مصطفى صادق الرافعي نواح وجدانية هي التي اطلقنا عليها كلمة فلسفة فلسفة الرافعي فهو ولوع بالتبحر في مظاهر الوجود متمسك بالالتفات الى الحياة التفاتاً وجدانياً . غير ان فلسفته لا تخرج عن كونها اتباعاً لاحكام القران . وبرز ما يميز نواحيه الوجدانية .

١ - نزعته الايمانية . فقد سخر للدفاع عن الدين بوجه عام لا سيما القران . وهو يضع القلب فوق العقل والايمان قبل المنطق . واذا كان يسلم بقوة المنطق في بعض الاحيان وتغور العقل فنزعته الايمانية هي الغالبة في ادبه . وهذا التمسك بالدين راجع لنشأته الدينية في اسرته التي طبعت به روح القران .

٢ - حبه للمرأة - كان مصطفى صادق الرافعي روحاني النزعة في حبه للمرأة فهو لا يأخذ منها الا تلك الناحية التي توصل الانسان الى عتبة الدين .

٣ - شوقيته وموقفه من الغرب . والرافعي شرقي قبل كل شيء لا يري في الغرب الا تمدناً فاسداً وحياة شك ومادة . وقد قادنا هذا البحث الى لقاء لمحة سريعة على بعض اقوال الدكتور طه حسين بهذا الصدد . فظهرنا عنده النزعة الشكية ^{لله} الكارثية التي تستهدف العقل والمنطق . وهي نزعة معاكسة تام المعاكسة لنزعة الرافعي الايمانية . وقد هاجمه الرافعي بنقد لاذع مرفي مقالات

عدة جمعت فيما بعد بعنوان (تحت راية القرآن)

٤ - القضاء والقدر ، الرافعي يرضخ لمشية القدر واقتبال السياة دوى تذر . وهي نزعة دينية بحثة شرعية ايضا .

٥ - الطفولية . يكثر الكلام عن الطفولية باقوال خالدة وشيد بطفولية القلب . والايمان في نظره حالة من حالات الطفولية الناعمة .

٦ - نزعة الافلاطونية . لا تخلو كتيبه من نزعة افلاطونية يستشفها القاري من وقت الى اخر لانه يتغنى كثيرا بعالم فوق هذا العالم وتدرج صعودا في ارتفاعه من حقائق ادنى الى حقائق اعلى .

ان الفصل الذي يلي هذا الكلام يحسم - حول القصة عند الرافعي . وقد لعبت دورا كبيرا في ادبه ولما طابعان :

طابع تاريخي . اي ان الرافعي كان يعتمد على حادثة من حوادث التاريخ الاسلامي ليكتب قصته

طابع اجتماعي . اي ان بعض هذه القصص مقتبس من صميم الحياة الراقعية . فقد كانت نفس الرافعي كعدسة آلة التصوير سريعة في التقاط المشاهد التي تمر على مسرح الايام . من هذه القصص قصة الطفولتان ، الشيطان ، الجمال البائس .

الرافعي الشاعر : امتاز شعره بالمتانة والقوة . بذلك كان مقلدا للاقدمين . اما الخيال عنده فهو باهت الى حد بعيد . كانك وانت تقرا شعره امام هيكل عظيم لا صفوة بيانية فيه ولا عذوبة تترق في دنياه . فقد عجز في ميدان الشعر عن ادائه لواعه الباطنية . ولا بد للقاري عندما يترك نشر الرافعي ليبدأ بشعره من الاحساس بانه يمدح من علو شاهق الى معنى سحيق . كانه القى من سما الى حضيض . لذلك لن يخلد الرافعي بشعره ولن يبقى من ديوانه ما تتباهى به الاجيال المقبلة . فهو مقصر في هذه السلبية وماجز .

الرافعي الناقد . ان نقد الرافعي يشبه هجا' الاقدمين يم كانوا يتراشقون سهام السباب فقد ظهرت عصبية الجامعة في هذا الميدان النقدي باجلى مظاهرها وبرز حاقدا ناقما ينحرف عن الجدل المنطقي الرصين والبحث العلمي . وهجمات معروفة في تاريخ الادب ضد طه حسين والعقاد ان هذه المشاحنات في ميدان الادب سيطروا النسيان وهي موجة مرت على ادباءنا الحديث اكسبته طابعا جديدا من النقد الجان ، ولكنه باب يجب علينا ان نغلقه ، لذلك لم نبحث فيه مطولا في هذه الرسالة .